الرسالة العاشرة

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

[الفاتحة : ٥]

عبد العزيز بن ناصر الجليل

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن عبادة الله عز وجل ، وتوحيده والاستسلام له أول واجب على المكلف أن يقوم به علماً وعملاً وانقياداً ، كما أنه أول شيء يجب أن يُدعى الناس إليه ، وجميع الرسل صلى الله عليهم وسلم إنما دعوا أول ما دعوا إلى توحيد الله وعبادته سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتْ** ﴾ [النحل: ٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

وإن قيمة الإنسان وكرامته الحقيقية لا تتحقق إلا بالعبودية الحقة لله عز وجل ، والتي من أجلها خلقه الله عز وجل، وجاء به إلى هذه الأرض، قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد وصف الله سبحانه نبيه ﷺ بالعبودية في أعلى المقامات ،

فقال : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ [الإسراء : ١].

ولا يبلغ الإنسان كماله الحقيقي وشرفه الأسمى في الدنيا والآخرة إلا بإفراد الله عز وجل بالألوهية والعبودية ، وصدق من قال : « **كفاني عزاً أن تكون لي رباً ، وكفاني فخراً أن أكون لك عبداً** » .

ولما كان توحيد الله عز وجل وعبادته بهذه المثابة والأهمية فحري بنا ونحن في زمن المهلة أن نسعى جادين لتحقيق هذا الشرف العظيم ؛ وذلك بجعل هذه الغاية العظيمة هي همنا وقصدنا في محيانا ومماتنا ، وألا يصرفنا عنها صارف من أمور الدنيا الفانية ، بل نوجه دنيانا وما أنعم الله به علينا فيها إلى خدمة هذه الغاية العظيمة والاستقامة عليها ؛ فيكون ما سخره الله عزوجل لنا في هذه الدنيا خادماً لهذه الغاية لا مخدوماً ، ومملوكاً لا مالكاً .

وإن افتقار العبد إلى عبادة ربه وحاجته إليها لا يعدلها حاجة ، ونعيمه بها لا يعدله نعيم ، ولكن لما كان الإنسان ـ بل كل مخلوق ـ لا يستطيع جلب ما ينفعه ودفع ما يضره إلا بالاستعانة بالله سبحانه والتوكل عليه ، ولما كانت العبادة هي أم المنافع وغايتها ، جاء الإرشاد منه سبحانه إلى ضرورة الاستعانة به عز وجل والتوكل عليه في تحقيق الغاية العظيمة والثبات عليها .

ومن أجمع الأدعية وأنفعها في هذا المقام ما ورد في سورة الفاتحة من الجمع بين العبادة والاستعانة في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ؛ حيث فرض الله سبحانه علينا أن نناجيه وندعوه بهما في كل صلاة .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« قوله تعالى في الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وعلم القرآن جُمع في الفاتحة ، وعلم الفاتحة في هذين الأصلين : عبادة الله والتوكل عليه .

وإذا أُفرد لفظ العبادة دخل فيه التوكل ؛ فإنه من عبادة الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم ﴾ [البقرة : ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وإذا قُرِن به التوكل كان مأموراً به وبخصوصه »[1] اهـ.

ولقد تكلم أئمة السلف وكتبوا عن هذه الآية العظيمة الجامعة وما تحتويه من معان عظيمة هي مقتضى ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته سبحانه ، ومن أجمل وأروع ما كتب حول هذه الآية ما سطره الإمامان الجهبذان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى ، وذلك في كتبهما المختلفة حول هذين الأصلين العظيمين في هذه الآية .

ولقد تميزت كتابة هذين الإمامين الجليلين بالذوق والصدق ، وكونهما قد تذوقا طعم ما يكتبانه ، وعاشاه قلباً وقالباً ، والقارئ لكتاباتهما يشعر أنه أمام إمامين ربانيين قد اصطبغا بما يكتبان ، وتمثلا ما يقولانه ويكتبانه ، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي جعل كتابة هذين الإمامين وأمثالهما تؤثر في النفوس ، وتلقى قبولاً عند الناس ؛ فرحمهما الله تعالى وجزاهما عن المسلمين خيراً .

إذن فإن الكتابة حول هذه الآية وما يتفرع عنها إنما هو جمع لما كتبه الأئمة الأعلام حول هذين الأصلين العظيمين ، ولن آتي بجديد في هذا الأمر ، فأنَّى

---

(١) جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية (١/ ٩١) .

لفقير الحال والمقال مثلي أن يأتي بذلك؟ وإنما سيكون الجهد منصباً على جمع ما تفرق من كتابات لبعض علماء الأمة حول هذه الآية العظيمة ، مع محاولة ترتيب المسائل والعناوين للمادة المجموعة ؛ بحيث يسهل على القارئ متابعة القراءة ، والانتقال بانسياب بين مسائلها محاولاً ـ حسب الاستطاعة ـ ربط بعض المسائل بأحوالنا المعاصرة وما طرأ عليها من مظاهر الانحراف في العبادة والتوكل، سواء أكان من جانب الفهم أم جانب التطبيق ، فهذه بعض الدوافع التي دفعت إلى كتابة هذه الرسالة .

وأخيراً ؛ فإن هذه الرسالة تأتي محصلة ـ أو بمعنى أصح ـ أساساً للرسائل التسع السابقة من سلسلة الوقفات التربوية ؛ حيث تعتبر القطب الذي تدور عليه رحى كل المفاهيم التي خرجت في الرسائل السابقة .

ولكي يسهل على القارئ متابعة هذا الموضوع المهم ، فإنه يمكن تقسيمه إلى المباحث التالية :

١ ـ شرح قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وما ورد في معناها من الآيات والأحاديث .

٢ ـ بيان المفهوم الصحيح للعبادة ، ومظاهر الانحراف والضعف في الفهم أو التطبيق .

٣ ـ بيان المفهوم الصحيح للتوكل والاستعانة ، وأقسام ذلك ، ومظاهر الانحراف والضعف فيهما فهماً وتطبيقاً .

٤ ـ بعض لوازم العبادة الحقة ، والتوكل الصادق ، وبعض ثمارهما .

٥ ـ الخاتمة .

أسأل الله عز وجل أن ينفع بهذه الرسالة كاتبها وقارئها ، وأن يحسن القصد فيها إنه سميع مجيب ، وهو المستعان وعليه التكلان .

* * *

المبحث الأول
شرح قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
وما ورد في معناها من الآيات والأحاديث

ورد في معنى قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ آيات كثيرة في كتاب الله عز وجل جمعت بين العبادة والتوكل على الله عز وجل ؛ إما بصيغة الدعاء ، أو صيغة الأمر بهما ، أو صيغة الإخبار عمن أخذ بهما من أنبياء الله وعباده الصالحين .

فمن هذه الآيات :

* قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] .

* وقوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، والإنابة بمعنى العبادة .

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] ، «والإنابة إلى الله والمتاب إليه هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته وطاعة رسوله»[1] .

* وقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ

(١) قاعدة في التوكل : لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٤٩ ، ت: علي الشبل.

وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٨، ٩].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

* وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

[الممتحنة: ٤]

* وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

[الشورى: ١٠]

* وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾.

[الفرقان: ٥٨]

والآيات التي جمعت بين العبادة والتوكل كثيرة.

أما الأحاديث، فمنها:

١ ـ قوله ﷺ في استفتاحه لصلاة الليل: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت... الحديث**»[(١)].

٢ ـ قوله ﷺ في دعائه: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»[(٢)].

٣ ـ وقوله ﷺ في دعاء السجود: «**اللهم لك سجدت، وبك آمنت،**

(١) البخاري/ ك التهجد من حديث ابن عباس (١١٢٠)، ومسلم/ ك صلاة المسافرين (٧٦٩).

(٢) مسلم/ ك الذكر والدعاء من حديث ابن عباس (٤/ ٢٠٨٦) (٢٧١٧).

وعليك توكلت ، سجد وجهي لله الذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين »[١] .

٤ ـ وقوله ﷺ عند ذبح الأضحية : « **اللهم هذا منك ولك** »[٢] . « فإن قوله : «**منك**» هو معنى التوكل والاستعانة، وقوله : «**لك**» هو معنى العبادة »[٣] .

٥ ـ وقوله ﷺ في دعاء النوم : « **اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيِّكَ الذي أرسلت** »[٤] .

ويلاحظ في هذه الأحاديث التي حث الرسول ﷺ على الدعاء بها أنها تجمع بين الأصلين العظيمين : العبادة والتوكل ، كما هو الشأن في الآيات السابقة .

إذن فلابد أن يوجد مقصد عظيم في الجمع بين العبادة والتوكل ، وأنه لا توفيق للعبد ولا ثبات ولا استقامة إلا بالأخذ بهما جميعاً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين ؛ من جهة العبادة ، وهي العلة

---

(١) مسلم / كتاب صلاة المسافرين من حديث علي (٧٧١).

(٢) أبو داود / ك الضحايا من حديث جابر (٣/ ٢٣٠) (٢٧٩٥) ، وابن ماجه / ك الأضاحي (٣١٢١) وغيرهما ، وهو في ضعيف سنن أبي داود (٥٩٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٩) .

(٤) البخاري / ك الوضوء من حديث البراء (٢٤٧) ، ومسلم / ك الذكر والدعاء (٢٧١٠).

الغائية ، ومن جهة الاستعانة والتوكل ، وهي العلة الفاعلة .

فالقلب لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا ينعم ، ولا يسر ، ولا يلتذ ، ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن ، إلا بعبادة ربه وحده ، وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات ، لم يطمئن ، ولم يسكن ؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة ، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة .

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له ، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك السرور والسكون إلا الله ، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإنه لو أُعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ، ولم تحصل له عبادة الله ؛ فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب ، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها ، إلا بإخلاص الحب لله ، بحيث يكون الله هو غاية مراده ، ونهاية مقصوده ، وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله ، ولا يُحب شيئاً لذاته إلا الله[1] .

ومتى لم يحصل له هذا ، لم يكن قد حقق حقيقة : « لا إله إلا الله » ، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله ، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان ، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك ، ولو سعى في هذا المطلوب ، ولم يكن مستعيناً بالله متوكلاً عليه مفتقراً إليه في حصوله ، لم يحصل له ؛ فإنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فالعبد مفتقر إلى الله ؛ من حيث هو المطلوب المحبوب ، المراد المعبود ، ومن حيث هو المسؤول المستعان به ، المتوكل عليه ، فهو إلهه الذي لا إله له

(١) في الأصل : (إلا لله) ، ولعلّ الصواب ما أثبتناه .

غيره ، وهو ربه الذي لا رب له سواه ، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين »[1] اهـ.

سر تقديم العبادة على الاستعانة :

يتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن سر هذا التقديم فيقول :

« وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل ؛ إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها ، والاستعانة وسيلة إليها ، ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ متعلق بألوهيته واسمه « الله» ، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ متعلق بربوبيته واسمه « الرب » ، فقدم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كما تقدم اسم الله على الرب في أول السورة .

ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قسم الرب ، فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به ، و ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قسم العبد ، فكان مع الشطر الذي له ، وهو ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة .

ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة ، من غير عكس ، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ، ولا ينعكس ؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته ، فكانت العبادة أكمل وأتم ، ولهذا كانت قسم الرب ، ولأن الاستعانة جزء من العبادة ، من غير عكس .

ولأن الاستعانة طلب منه ، والعبادة طلب له ، ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص ، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص .

ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك ، والاستعانة طلب العون على العبادة ، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك ، وأداء حقه أهم من

(١) العبودية ص ٤٥ ، ٤٦ .

التعرض لصدقته.

ولأن العبادة شكر نعمته عليك ، والله يجب أن يشكر ، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك ، فإذا التزمت عبوديته ، ودخلت تحت رقّها أعانك عليها ، فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة ، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها ، وإعانة بعدها على عبودية أخرى ، وهكذا أبداً ، حتى يقضي العبد نحبه .

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له . و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به ، وما (له) يتقدم على ما (به) ؛ لأن ما (له) متعلق بمحبته ورضاه . وما (به) متعلق بمشيئته ، وماتعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمشيئته »[1] اهـ.

مما سبق يتبين لنا سرّ الجمع بين العبادة والاستعانة ، وشدة فاقة العبد وفقره إلى عبادة ربه ، وأنه لا يستطيع ولا يقوى على ذلك إلا بالاستعانة به سبحانه والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه عز وجل : « فقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تبرؤ من الشرك. وعبادته سبحانه بالأمر والنهي والمحبة والخوف، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تبرؤ من الحول والقوة. والقيام بعبادته سبحانه بالتفويض والتسليم، وجميع العبوديات داخلة في ذلك ؛ لأن الأول إشارة إلى عبادته سبحانه بما اقتضته إلهيته ، والثاني بما اقتضته ربوبيته»[2] اهـ.

« أما تقديم المعبود المستعان على الفعلين بأن قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٥، ٧٦).

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (١/ ٨٩) .

يقل (نعبدك) ففيه : الأدب مع الله سبحانه بتقديم اسمه على فعلهم ، وفيه الاهتمام وشدة العناية به ، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر ؛ فهو في قوة : لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك »[1] اهـ.

أما عن معنى العبادة والاستعانة (التوكل) فيبين ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حيث يقول :

« **والعبادة** : تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع . والعرب تقول : طريق معبد أي مذلّل ، والتعبد : التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له ، لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة ، لم تكن عابداً له حتى تكون محبّاً خاضعاً .

ومن هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية ، والمنكرون لكونه محبوباً لهم ؛ بل هو غاية مطلوبهم ، ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم ؛ منكرين لكونه إلهاً ، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم ؛ فهذا غاية توحيدهم ، وهو توحيد الربوبية ، الذي اعترف به مشركو العرب ، ولم يخرجوا به من الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [الزخرف : ٨٧]، وقال تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [الزمر : ٣٨]، ﴿ **قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** ﴾ [المؤمنون : ٨٤، ٨٥] .

ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته ، وأنه لاينبغي أن يعبد غيره ، كما أنه لا خالق غيره ولا رب سواه .

---

(١) انظر : مدارج السالكين (١/ ٧٧) .

والاستعانة : تجمع أصلين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه ؛ فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به ؛ لاستغنائه عنه . وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه ، ولعدم من يقوم مقامه ، فيحتاج إلى اعتماده عليه ، مع أنه غير واثق به .

والتوكل : معنى يلتئم من أصلين : من الثقة ، والاعتماد ، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذان الأصلان ـ وهما التوكل والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع ، قرن بينهما فيها ، هذا أحدهما»[1] اهـ.

وسيأتي إن شاء تعالى كلام أكثر تفصيلاً عن مفهوم العبادة الحقة والتوكل الصادق، وما ينافيهما في المباحث القادمة إن شاء الله تعالى .

أقسام الناس في العبادة والاستعانة (التوكل) :

١ ـ منهم من غلب عليه التأله لله وعبادته بالأمر والنهي، مع قيامه بالاستعانة والتوكل على الله عز وجل .

٢ ـ ومنهم من أعرض عن عبادته سبحانه والاستعانة به .

٣ ـ ومنهم من له نوع عبادة بلا استعانة ولا توكل على الله عز وجل .

٤ ـ ومنهم من له توكل ولجوء إلى الله عز وجل مع تفريطه في عبادة ربه وفي أوامره ونواهيه .

ويجلي هذه المسألة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حيث يقول :

« فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام :

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٤) ، وقد سبق ذكر الآيات التي قرن فيها بين العبادة و التوكل .

أجلها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها ، فعبادة الله غاية مرادهم ، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ؛ ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الربُّ تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته ، وهو الذي علّمه النبي ﷺ لحبِّه معاذ بن جبل ؛ فقال : « **يا معاذ ، والله إني لأحبك ، فلا تنس أن تقول في دُبُر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** »[1] .

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته ، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب . وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه ، فتأملها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه : تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ .

ومقابل هؤلاء : **القسم الثاني** : وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة ولا استعانة ، بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه ، فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض ؛ يسأله أولياؤه وأعداؤه ، ويُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء ، وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فسأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها ، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته ؛ كانت زيادة له في شقوته ، وبعده عن الله وطرده

---

(١) أبو داود / ك الصلاة من حديث معاذ (١٥٢٢) ، والنسائي / ك السهو (٣/ ٥٣) ، وأحمد (٥/ ٢٤٤ ، ٢٤٧) ، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٣٤٧) .

عنه ، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته ، كان مبعداً له عن مرضاته ، قاطعاً له عنه ولابد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره ، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته ، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه ، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له ، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظاً لا بخلاً ، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ، ويعامله بلطفه ، فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ، ويراه يقضي حوائج غيره ، فيسيء ظنه بربه .

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة ، وهؤلاء نوعان :

أحدهما : القدرية القائلون بأنه قد فعِل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف ، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل ، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل ، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها ، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة ، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء ، ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان ، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان ، وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر ، فعباده هؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة ، لا استعانة معه ؛ فهم موكولون إلى أنفسهم ، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن

بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه وتوحيده .

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به ، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له ، بل كالعدم الذي لا وجود له ، وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمعول على المحرك الأول .

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك ، ومن السبب إلى المسبب ، ومن الآلة إلى الفاعل ، فضعفت عزائمهم ، وقصرت هممهم ؛ فقل نصيبهم من ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف ، فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير ، بحسب استعانتهم وتوكلهم ، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ، ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته ، لأزاله .

فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟

قلت : هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله ، وتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس ؛ فيوجب له هذا اعتماداً عليه ، وتفويضاً إليه، وطمأنينة به ، وثقة به ، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه ، وأنه مَلِيٌّ به ، ولا يكون إلا بمشيئته ، شاءه الناس أم أبوه ، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَليَّان بهما . فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه ، وحبس هَمِّه على إنزال ما ينوبه بهما . فهذه حال المتوكل ، ومن كان هكذا مع الله ، فالله كافيه ولابد ، قال الله تعالى: ﴿وَمَن

﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] . أي كافيه . والحسب : الكافي ، فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو :

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضرر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولم يَدُر مع ما يحبه ويرضاه ، فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه ، وطلبها منه ، وأنزلها به فقضيت له ، وأُسعف بها ، ولكن لا عاقبة له ، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق أو أحوالاً ؛ من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، فإنها من جنس المُلك الظاهر ، والأموال لا تستلزم الإسلام ، فضلاً عن الولاية والقرب من الله ، فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر .

فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ، ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين ؛ فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدهم معرفة بالله ودينه، والتمييز بين ما يحبه الله ويرضاه ويكرهه ويسخطه ، فالحال من الدنيا، فهو كالملك والمال ، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته ، وتنفيذ أوامره ، ألحقه بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله ، وملحق له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة »[1] اهـ.

وانقسام الناس إلى الأقسام السابقة هو فيما يكون في الأمر قبل وقوعه من العبادة والتوكل والاستعانة ، أما بعد وقوع الأمر المقدر ؛ فإن المتعين

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٨ـ ٨٢).

حينئذ هو تقوى الله عز وجل والصبر على المقدور. والناس في هذا أيضاً على أربعة أقسام :

١ ـ فمنهم أهل التقوى والصبر .

٢ ـ ومنهم من له نوع من التقوى بلا صبر .

٣ ـ ومنهم من له نوع صبر بلا تقوى .

٤ ـ ومنهم من لا تقوى له ولا صبر .

ويوضح هذه الأقسام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فيقول :

« وما يكون بعده (أي بعد وقوع المقدور) من صبر ورضا ، ونحو ذلك فهم في التقوى (وهي طاعة الأمر الديني) ، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام :

أحدها : أهل التقوى والصبر ، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

والثاني : الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر ، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ، ويتركون المحرمات ، لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرضه ، أو ابتلي بعدوٍّ يخيفه عظم جزعه ، وظهر هلعه .

والثالث : قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى ، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام ، والكُتّاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال

بالخيانة وغيرها .

وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس، وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم ، يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام .

وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الأرض أو فساداً من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ، ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان ، والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً أو مباشرة ، وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات ، ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور وفعلوه من المحظور ، وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب، كالمرض والفقر وغير ذلك ، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر .

وأما القسم الرابع : فهو شرّ الأقسام : لا يتقون إذا قدروا ، ولا يصبرون إذا ابتلوا ؛ بل هم كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا** ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس، وأجبرهم إذا قدروا ، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قُهروا ، إن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك ، وحابوك واسترحموك، ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب ، والذل، وتعظيم المسؤول ، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلباً، وأقلهم رحمة وإحساناً وعفواً ، كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد ، مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ، ومن يشبههم في كثير من أمورهم ، وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم

وزهادهم وتجارهم وصناعهم ، فالاعتبار بالحقائق : « **فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** »[١] .

فمن كان في قلبه وعمله من جنس التتار وأعمالهم كان شبيهاً لهم من هذا الوجه ، وكان ما معه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه ، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية ، وأبعد عن الأخلاق الإسلامية من التتار .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته : « **خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة** »[٢] .

وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه؛ كان إلى الكمال أقرب ، وهو به أحق . ومن كان بعد ذلك أبعد وشبهه به أضعف ؛ كان عن الكمال أبعد ، وبالباطل أحق .

والكامل هو من كان لله أطوع ، وعلى ما يصيبه أصبر ، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه ؛ وصبراً على ما قدره وقضاه؛ كان أكمل وأفضل ، وكل من نقص عن هذين؛ كان فيه من النقص بحسب ذلك .

---

(١) مسلم بنحوه / ك البر والصلة من حديث أبي هريرة (٤/ ١٩٨٦) (تحت ٢٥٦٤).

(٢) البخاري بنحوه موقوفاً على ابن مسعود / ك الأدب (٦٠٩٨) ، ك الاعتصام (٧٢٧٧) ، ومسلم مرفوعاً / ك الجمعة (٨٦٧) .

وقد ذكر الله تعالى : « الصبر والتقوى » جميعاً في غير موضع من كتابه، وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين ، وعلى من ظلمه من المسلمين ، ولصاحبه تكون العاقبة .

قال الله تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[آل عمران: ١١٨ - ١٢٠] .

وقال أخوة يوسف له : ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

[يوسف: ٩٠]

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً ، فقال تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩] .

وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله ، وطاعة لأمره ، وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ(١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

[هود: ١١٤، ١١٥]

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ .

[طه: ١٣٠]

وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] ، فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر »[1] اهـ.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٧٣ ـ ٦٧٧).

المبحث الثاني
المفهوم الصحيح للعبادة
ومظاهر الانحراف والضعف في ذلك

سبقت الإشارة في المبحث السابق عند تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى بعض معاني العبادة والعبودية ، وهذا أوان التفصيل فيها وبيان أقسامها ومراتبها ومظاهر الانحراف في فهم العبادة وتطبيقاتها .

المفهوم الصحيح للعبادة :

اختلفت أقوال العلماء في مفهوم العبادة وتعريفها ، وهذا الاختلاف هو من اختلاف التنوع وليس التضاد ، أي أن هذه التعريفات يكمل بعضها بعضاً وهي تدور بين التعريف اللغوي أو التعريف بلازمها أو أقسامها أو أركانها . والإلمام بكل هذه الأقوال ينتج عنه المفهوم الصحيح للعبادة .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

«أصل العبادة : محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه ، فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه .

وإذا كانت المحبة له ، حقيقة عبوديته وسرها ، فهي إنما تتحق باتباع أمره

واجتناب نهيه »[١] .

ويقول في موطن آخر :

« العبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع . والعرب تقول : طريق معبد أي مذلل ، والتعبد التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له ، حتى تكون محباً خاضعاً »[٢] .

ويعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فيقول :

« العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة »[٣] .

ويشرح الإمام ابن القيم رحمه الله هذا التعريف ، فيقول :

« وبنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان ، والقلب ، وعمل القلب ، والجوارح .

فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع ، فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقاً هم أصحابها .

فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذَبُّ عنه وتبيين

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٩٩) .

(٢) مدارج السالكين (١/ ٧٧) .

(٣) العبودية : ص٤ ، ت : بشير عيون .

بطلان البدع المخالفة له ، والقيام بذكره وتبليغ أوامره .

وعمل القلب: كالمحبة له والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه والرجاء له ، وإخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن نواهيه وعلى أقداره ، والرضا به وعنه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع، والإخبات إليه ، والطمأنينة به ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة .

وأعمال الجوارح : كالصلاة والجهاد ، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ، ومساعدة العاجز ، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك ، فـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾؛ التزام لأحكام هذه الأربعة وإقرار بها »[1] .

ويقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى :

« وفي المراد بهذه العبادة ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بمعنى التوحيد ، روي عن علي وابن عباس وآخرين .

الثاني : أنها بمعنى الطاعة ، كقوله تعالى: ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ . [يس: ٦٠]

الثالث : أنها بمعنى الدعاء كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ [غافر: ٦٠] »[2] اهـ.

وقال الزجاج : « معنى العبادة في اللغة : الطاعة مع الخضوع»[3] .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٠).

(٢) زاد المسير (١/ ١٤)

(٣) معاني القرآن (١/ ٤٨).

متى يكون العبد متحققاً بوصف العبودية ؟

لا يكون العبد متحققاً بوصف العبودية إلا بأصلين عظيمين :

١ ـ متابعة الرسول ﷺ .

٢ ـ الإخلاص للمعبود ، فهذا تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن انقسام الناس في هذين الأصلين ، فيقول :

«والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام :

أحدها : أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة ، وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حقيقة ، فأعمالهم كلها لله ، وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله ، ومنعهم لله ، وحبهم لله ، وبغضهم لله ، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده ، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً ، ولا ابتغاء الجاه عندهم ، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم ، ولا هرباً من ذمهم ، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور ، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ، ولاموتاً ولا حياة ولا نشوراً .

فالعمل لأجل هؤلاء ، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ، ورجائهم للضر والنفع منهم ؛ لا يكون من عارف بهم البتة ، بل من جاهل بشأنهم ، وجاهل بربه ، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه ، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق ، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم ، وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة

لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه.

وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله، قال الله تعالى: ﴿ **الَّذِيَ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك: ٢]. وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً؛ لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل؛ حتى يكون خالصاً وصواباً، والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السنة.

وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ١١٠]. وفي قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾ [النساء: ١٢٥].

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يعود عليه أحوج ما هو إليه هباءً منثوراً.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: « **كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد** »[(١)] وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً، فإن الله تعالى يُعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

---

(١) البخاري بنحوه من حديث عائشة / ك الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم / ك الأقضية (٣/ ١٣٤٣) (تحت ١٧١٨).

الضرب الثاني :

من لا إخلاص له ولا متابعة ؛ فليس عمله مواققاً لشرع ، ولا هو خالصاً للمعبود ؛ كأعمال المتزينين للناس ، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله ، وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله عز وجل ، ولهم أوفر نصيب من قوله : ﴿ **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٨٨] . يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص .

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم ، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات ، والرياء والسمعة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم ، فهم أهل الغضب والضلال .

الضرب الثالث :

من هو مخلص في أعماله ، لكنها على غير متابعة الأمر ، كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر ، وكل من عبد الله بغير أمره ، واعتقد قربه إلى الله فهذه حاله ، كمن يظن أن سماع المُكَاء والتصدية قربة ، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة ، وأمثال ذلك .

الضرب الرابع :

من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله كطاعة المرائين ، وكالرجل

يقاتل رياء وحمية وشجاعة ، ويحج ليقال ، ويقرأ القرآن ليقال ، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها ، لكنها غير خالصة فلا تقبل ؛ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] .

فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر ، والإخلاص له في العبادة ، وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ »[1] اهـ.

انقسام العبودية إلى عامة وخاصة :

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« العبودية نوعان : عامة ، وخاصة :

فالعبودية العامة : عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله ، بَرِّهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فهذه عبودية القهر والملك ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣] ، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧] ، فسماهم عباده مع ضلالهم ، لكن تسمية مقيدة بالإشارة ، وأما المطلقة فلم تجئ إلا لأهل النوع الثاني ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وقال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٣ ـ ٨٥).

﴿وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦] . وقال : ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة .

وأما النوع الثاني : فعبودية الطاعة والمحبة ، واتباع الأوامر ، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] . وقال : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]، وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ، وقال تعالى عن إبليس: ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠] ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] .

فالخلق كلهم : عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته»[1] اهـ.

أفضل العبادة وأنفعها :

لما كان أهل طاعة الله وولايته هم عبيد إلهيته المنقادون لأمره ، وهم عبيده المحبون له ، المتذللون له ، المدركون للغاية التي من أجلها خُلقوا ؛ فلا جرم كانت أوقاتهم وأعمارهم كلها معمورة بعبادته جلَّ وعلا ، وإيثار مرضاته في كل وقت ومكان ،أطاعوا الله تعالى ورسوله ﷺ في كل حين وحال ، وفي كل حركة وسكنة ، وفي محياهم ومماتهم، في المسجد وفي البيت وفي السوق وفي كل عمل يمارسونه في حياتهم .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٥).

وباختصار ، فلقد فهموا وخضعوا لقوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] .

هكذا فهم سلفُ الأمة وصلحاؤها معنى العبادة ، وأن الحياة كلها يجب أن تكون محكومة بدين الله عز وجل .

ثم إنهم بعد ذلك فاضلوا بين العبادات والأعمال الصالحة عند التزاحم ، وقدموا أحبها لله وأرضاها له عزوجل ، وذلك عندما يضيق الوقت عن القيام بها مجتمعة .

وهذا هو الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، يبين لنا الاختيار الصحيح لأساس التفاضل بين العبادات وأحقها بالإيثار بعد أن ذكر أقوالاً أربعة أيد منها أهل الاختيار الرابع ، فقال :

« **الصنف الرابع** : قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته ، فأفضل العبادات في وقت الجهاد ؛ الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعلم الجاهل : الإقبال على

تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع ، وإن بَعُد كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمعية القلب، والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المُضعِف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد ؛ فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير ، فهي خير من عزلتهم فيه ، وعزلتهم في الشر ، فهي أفضل من خلطتهم فيه ، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله ، فخلطتهم حينئذ أفضل من عزلتهم .

فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه ، وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقض وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد .

وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى .

فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره ؛ فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن

رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم .

فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه ؛ ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه ، فهذا هو المتحقق بإياك نعبد وإياك نستعين حقاً ، القائم بهما صدقاً ، ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر به في كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى ووجده خالياً ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الأمر أنَّى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها ، وكلها منفعة حتى شوكها ، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله .

فهو لله وبالله ومع الله ، قد صحب الله بلا خَلْق ، وصحب الناس بلا نَفْس ، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق من البين ، وتخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها . فواهاً له ، ما أغربه بين الناس ، وما أشدَّ وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه !! والله المستعان ، وعليه التكلان »[1] اهـ.

خلاصة ما سبق :

مما سبق بيانه من النقولات يتضح لنا جليّاً معنى العبادة الحقة التي أمرنا الله عز وجل أن نتعبده بها ، ويمكن تلخيص هذا المعنى العظيم وتلك الحقيقة الضخمة فيما يلي :

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٨ـ ٩٠).

* العبادة الحقة تعني تمام المحبة مع تمام الخضوع والتذلل لله عز وجل .

* تمام المحبة وكمال الخضوع والتذلل لله عز وجل يعني طاعته سبحانه والانقياد لأمره ، ومحبة ما يحب ، وبغض ما يكره، واتباع رسوله محمد ﷺ فيما أمر ونهى ، وما سن وما شرع من غير زيادة ولا نقصان ؛ وإلا فما قيمة محبة وخضوع لا يثمران طاعة واتباعاً وقبولاً والتزاماً .

* العبادة الحقة تفرض على العبد أن يكون في كل أوقاته وتحركاته وسكناته مصبوغاً بصبغة العبودية لا يخرج عنها في أي لحظة من اللحظات، وسيأتي زيادة بيان حول هذه المسألة قريباً إن شاء الله تعالى .

* من صرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى فهو مشرك تجب البراءة منه ومن شركه ، ولا تصح العبادة إلا بهذه البراءة .

* * *

بعض مظاهر الضعف والانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها

بعد أن اتضح لنا مفهوم العبادة الحقة كما يريدها الله عز وجل لنفسه، وكما فهمها وحققها رسوله ﷺ في أعلى مقاماتها، وكما فهمها سلفنا الصالح رضي الله عنهم وطبقوها، فلابد بعد ذلك من عرض هذه المفاهيم العظيمة والحقائق الضخمة على واقعنا نحن المسلمين في هذه الأزمنة المتأخرة، وهل هذا الفهم الصحيح للعبادة هو السائد اليوم بين المسلمين؟ أم أن هذا الفهم قد اعتراه من الضعف والانحراف الشيء الكثير؟

إن المتأمل في حال المسلمين الأليم، والغربة التي يعيشها أهل الإسلام اليوم ليجد كثيراً من المفاهيم العقدية قد انحرفت عند كثير من عامة المسلمين إلا من رحم الله عز وجل، فهناك انحراف في معنى التوحيد والعبادة، وانحراف في عقيدة اليوم الآخر، وانحراف في عقيدة القضاء والقدر، وانحراف.. وانحراف.. ولقد ساهم في هذه الانحرافات غزو أعداء المسلمين لديار المسلمين بثقافاتهم الكافرة وأفكارهم المنحرفة، وقابل هذا الغزو من الأفكار جهلٌ عند كثير من الأجيال المسلمة بدينها وعقيدتها، وعجز عند أكثر علماء الأمة عن تعليم الناس والوقوف في وجه هذا الغزو، (فوافق الغزو قلباً خالياً فتمكنا).

وفي هذه الفقرة من هذا البحث سيتوجه التركيز على بعض مظاهر

الانحراف والضعف في مفهوم العبادة ، فمن ذلك ما يلي :

١ ـ الانحراف في تطبيق شرطي العبادة :

من مظاهر الانحراف في العبادة فهماً وتطبيقاً ما هو منتشر بين أهل البدع والخرافة في القديم والحديث، من ترك لأحد شرطي العبادة أو كليهما واللذين لا تصح العبادة إلا بهما ؛ ألا وهما الإخلاص والمتابعة ، وقد سبق الإشارة إلى أصناف الناس في أخذهم أو تركهم لهذين الشرطين في مبحث سابق ، ولكن المراد هنا إيضاح الانحراف الذي يترتب على ترك هذين الشرطين أو أحدهما ؛ فترك الإخلاص في العبادة نتج عنه صرف العبادة التي هي لله وحده إلى غيره من الخلق الفقراء ـ ولو كانوا أنبياء أو ملائكة أو أولياء ـ وهذا صرف للعبادة عن مستحقها، وحجتهم الداحضة عند ربهم أنهم يؤمنون بأن الله الخالق الرازق بيده الضر والنفع ، ولكنهم يتوسلون بالصالحين ليقربوهم إلى الله زلفى ؛ وهذا هو الشرك الأكبر الذي من أجله أنزلت الكتب وأرسلت الرسل .

فترى هؤلاء يصرفون العبادة بأنواعها المختلفة من ذبح ونذر ، وخوف ، ورغبة ، وغير ذلك من أصناف العبادة إلى غير الله عز وجل ، وهذا من أشد مظاهر الانحراف في العبادة ؛ لأنه شرك أكبر يضاد الإخلاص لله عز وجل ، والذي هو شرط من شروط كلمة التوحيد ، وقبول العبادة . ومحل الكلام عن هذا الشرك وأنواعه مبسوط في كتب التوحيد والعقائد ، ككتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغيره ، وليس هنا محل التفصيل .

أما ترك الشرط الثاني لصحة العبادة (وهو المتابعة) فينتج عنه انحرافات

كثيرة في العبادة وتطبيقاتها ، حيث ظهرت ألوان وصور من العبادات التي لم يأذن بها الله عز وجل ، ولم يشرعها الرسول ﷺ لأمته ، وخاصة بين المتصوفة الذين يعطون لمشائخهم حق التشريع ، ويعتبرون أقوالهم وأفعالهم مصدراً من مصادر الاستدلال ، فظهرت بذلك هيئات وصور متعددة للعبادة والأوراد والأذكار كلها مبتدعة سواء في كيفيتها أو كمها أو هيئتها أو طريقة أدائها أو زمانها أو مكانها ، وهذه كلها مردودة على أصحابها ؛ لأنها تشريع لم يأذن به الله ، قال تعالى : ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [الشورى: ٢١] ، ولقوله ﷺ : « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد** »[(١)] .

٢ ـ الانحراف في مفهوم العبادة :

وهو النظر إلى العبادة على أنها الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وحج، وذبح وقراءة قرآن فحسب ، وأن ما سوى ذلك من معاملات وأخلاقيات ومباحات وغيرها كل ذلك لا يدخل في العبادة .

نعم إن هذا المفهوم هو السائد عند بعض المسلمين سواء أقالوه بلسان مقالهم أم بلسان حالهم وأعمالهم ، ولا أدل على ذلك من أننا قد نجد ذاك العبد المصلي الصائم القارئ للقرآن بعد فراغه من هذه الشعائر التعبدية لا يتورع أن يغشّ ، أو يرابي ، أو يظلم ، أو يملأ بيته من آلات اللهو ووسائل الإفساد ما الله به عليم .

وكذلك قد نرى المرأة المصلية الصائمة لا تتورع عن التصرف في نفسها

---

(١) مر تخريجه ص٣١٩.

بما يخالف الشرع من سفور أو زينة محرمة أو اختلاط أو غيره . وإذا نصح مثل هؤلاء الناس ، قالوا: بأنهم من المصلين العابدين ، وقد انتهى وقت العبادة !

وهكذا تنحرف الغايات ، وتنشأ اللوثات ،وتفسد النيات ، وذلك كمن يفصل أمر تعليمه وتعليم أولاده عن غاية العبادة لله عز وجل ، ويربط ذلك بالشهادة والمال والوظيفة ، بل يستخدم أية وسيلة توصله إلى ذلك ، وهذا الفصام النكد هو منشأ الانحرا ف، إنه ينشأ من فهم هؤلاء للعبادة بأنها أوقات محددة في اليوم والليلة أو السنة ، وما عدا ذلك من الأوقات فهو حر يتمتع بوقته ويفعل ما يحلو له .

ونسي هؤلاء الناس أو تناسوا أنهم ما خلقوا إلا للعبادة ، ولا يقبل الله عز وجل منهم في حياتهم إلا أن يُمضوها في عبادته بالمعنى الشامل للعبادة، لا بمفهومهم القاصر لها .

إن العبادة بهذا المفهوم المنحرف تجعل الإنسان في انفصال وانفصام بين حياته في مسجده وخارج مسجده ؛لأنه لو كان مفهوم العبادة التي يريدها الله عز وجل كما فهمها هذا الصنف من الناس لكانت عبثاً ، ولبقي أكثر الأوقات غير معمور بعبادة الله عز وجل ، وهذا لا يرضاه الله عز وجل .

ذلك لأن أوقات الصلوات لا تتعدى ساعتين أو ثلاث في اليوم والليلة، فماذا يكون شأن الساعات الباقية ، هل تنفق في غير عبادة ؟! كلا، فإن الله سبحانه لا يرضى لعباده هذه الحال .

إذن فالواجب على كل مسلم أن يعلم أنه ماخلق إلا للعبادة، وأن وقته يجب أن يكون في عبادة ؛ سواء ما كان منه في الشعائر التعبدية أو ما كان منه في المعاملات ، أو ما كان منه في المباحات ، كل ذلك يجب أن يمارسه

العبد وشعور العبادة لله عز وجل يصاحبه ، فيراقب ربه في كل أعماله ، وينوي به التقرب إليه عز وجل والاستعانة بها على طاعته .

إن هذا الشعور وهذه النية تجعل العبد في كل أعماله ـ حتى في مباحاته ولذاته ـ عبداً لله مسلماً وجهه لربه عز وجل ، وحول هذا المعنى يتحدث الأستاذ محمد قطب حفظه الله ، فيقول :

« كان المفهوم الصحيح في حسّ الأجيال الأولى أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله ، كما فهموا من قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إن هذه الآية الكريمة كانت تُمثّل في حسهم معنى هائلاً جداً ، وعميقاً جداً ، وشاملاً لكل حياة الإنسان ، فالقرآن نازل بلغتهم ، وهم يفهمون إيحاءات تلك اللغة ، ويدركون أسرار بلاغتها ، فيدركون من معنى الآية : أن غاية الوجود الإنساني كله محصورة في العبادة لا تتعداها إلى شيء غيرها على الإطلاق .

فالنفي والاستثناء هما أقوى صور الحصر والقصر في اللسان العربي . ومعناهما : النفي البات من جهة ، والحصر الكامل من الجهة الأخرى ، نفي أي غاية للوجود البشري غير عبادة الله ، وحصر غاية هذا الوجود كله في عبادة الله ، و كانوا إلى جانب ذلك يحسون إحساساً صادقاً بعظمة الله جل جلاله فيحسون تبعاً لذلك بما ينبغي للعبد ـ في مقام عبوديته ـ تجاه الله ـ في مقام ألوهيته ـ من إخلاص العبودية له ، وإخلاص العبادة . . سواء .

ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة في حسهم في نطاق الشعائر التعبدية

وحدها، كما انحصر في حس الأجيال المتأخرة التي جاءت بفهم للإسلام غريب عن الإسلام .

إن شعائر التعبد لا يمكن بداهة أن تكون هي كل « العبادة » المطلوبة من الإنسان ، فما دامت غاية الوجود الإنساني ـ كما تنص الآية الكريمة ـ محصورة في عبادة الله ، فأنّى يستطيع الإنسان أن يوفي العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب ؟!

كم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة ؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان ؟

وبقية العمر ؟ وبقية الطاقة ؟ وبقية الوقت ؟ أين تنفق وأين تذهب ؟ تنفق في العبادة أم في غير العبادة ؟ وإن كانت في غير العبادة ، فكيف تتحقق غاية الوجود الإنسان التي حصرتها الآية حصراً كاملاً في عبادة الله ؟ وكيف يجوز للإنسان ـ من عند نفسه ـ أن يجعل لوجوده ـ أو لجزء من وجوده ـ غاية لم يأذن بها الله ؟

قال الله عز وجل : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ .

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

تلك هي العبادة التي كلف الله بها الإنسان ، تشمل الصلاة والنسك ـ أيّ الشعائر التعبدية ـ وتشمل معها كل الحياة . . وكذلك فهم الجيل الأول رضوان الله عليهم معنى العبادة .

لم يحصروها قط في داخل الشعائر التعبدية ، بحيث تصبح اللحظات التي يقومون فيها بأداء الشعائر التعبدية هي وحدها لحظات العبادة ، وتكون

بقية حياتهم خارج العبادة »[1] .

٣ ـ الانحراف في التطبيق :

وقد ترتب على الانحراف في مفهوم العبادة ـ كما قدمنا ـ انحراف آخر في تطبيق العبادة ، فحتى الشعائر التعبدية التي حُصرت العبادة فيها فحسب ، هي الأخرى نالها ما نالها من الضعف والميل بها عن حقيقتها وغايتها ، وهذه نتيجة متوقعة وبدهية معروفة ؛ فالانحراف في الفهم لابد أن ينتج عنه انحراف في التطبيق . ويوضح الأستاذ محمد قطب وفقه الله هذا الانحراف فيقول :

« حين صار المطلوب كله هو أداء الشعيرة ، وانحصرت « العبادة» كلها في هذا الأمر ، كان حرياً بهذا اللون من العبادة أن ينحسر أكثر فأكثر ، حتى يصبح المطلوب هو أداء الشعيرة بأي صورة كانت . . ولو كان أداءً آلياً بغير روح ، أو أداء تقليدياً يحركه الحرص على التقاليد أكثر مما يحركه الدافع إلى عبادة الله . .

وتلك هي الصورة التي انتهت إليها العبادة في الجيل الذي شهد الانهيار . وصلت الصلاة أن تكون مجرد حركات تؤدى بلا خشوع ولا إخبات ، ولا التفات إلى معنى ما يُتلى فيها من الآيات والذكر ، وينصرف منها المصلي لا تكاد تحس أنها قد تركت أثراً في نفسه ، أو انعكست على تصرف من تصرفاته ، هذا إن لم يكن قد انشغل عنها تماماً ـ وهو فيها ـ بحساب خسائره وأرباحه ، أو شيء من سائر مشاغله اليومية !

---

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٧٤ ـ ١٧٩ باختصار .

وأصبح الصيام مجرد امتناع عن الطعام والشراب ساعات النهار ، مع نهم ضخم إلى الطعام بعد الإفطار يصل إلى حد الإسراف ، كأنما هو شهر الطعام لا شهر الصوم ! فضلاً عن البحث عن «المسليات» في ليل الصوم ، من عكوف على المذياع أوالتلفاز ، أو ما هو أعجب من ذلك وأسوأ مما تنشره صحف « محترمة »!! في البلاد « الإسلامية » « المتقدمة » !!من إعلانات تقول : إن الراقصة الفلانية « تحيي ليالي رمضان!!» في المسرح الفلاني إلى ما بعد منتصف الليل ، ويعج المسرح « بالصائمين » الذين صاموا من قبل الرقص ومن بعده ، بلا حرج في صدورهم ولا تأثم ، ولا إحساس بالتناقض بين ما يجري في الليل وما يجري في النهار .

فإنما هي ـ حفظك الله ـ ساعة بعد ساعة ! . . « ساعة لربك وساعة لقلبك» كما يقول التعبير الجاهلي المعاصر !

والزكاة ـ إن أداها صاحب المال ـ لا تمنعه من أكل الربا ولا تحرج صدره منه ! فهذه عبادة وهذا عمل ! ولا علاقة ولا تداخل بين العبادة وبين العمل ! فضلاً عن الألاعيب والحيل التي يسترد بهال « المزكي» جزءًا من المال الذي تصدق به بالتحايل على من أداه إليهم من الفقراء والمساكين!

والحج فرصة هائلة للحصول على لقب «الحاج» . . ولا حرج على «الحاج» بعد ذلك أن يحلف اليمين الغموس إذا اقتضت ذلك « مصلحة» التجارة أو أي نوع من التعامل يقوم به ! فضلاً عما يقع في الحج ذاته من أمور يذهل لها العاقل ، فضلاً عن المسلم المؤمن ، من تدافع ـ مقصود ـ بالمناكب ، ومن « حجاج » يدوسون فوق إخوان لهم في الإسلام وإخوان لهم في الحج حتى يزهقوا أرواحهم غير مبالين ؛ من أجل الانتهاء من الرجم

بأية صورة ، أو الانتهاء من الطواف ! وفضلاً عن جهالة الجاهلين الذين يتركون أركاناً لا يصح الحج إلا بها ، أو يرتكبون مخالفات صريحة دون فدية ولا نسك . . لأنهم لا يعلمون »[1] .

٤ ـ الانحراف في مصدر التلقي :

ترتب على الانحراف السابق في مفهوم العبادة انحراف أشد خطراً وأسوأ أثراً ؛ حيث كان الانحراف السابق ذكره منحصراً على مستوى الفرد ، بينما هذا الانحراف الذي نحن بصدده يتمثل في النظم التي تحكم في أكثر بلدان المسلمين اليوم ، والتي يسعى أربابها إلى عزل الدين عن الحياة وتوجيهها وتنظيمها ، وحصره بين جدران المسجد وأداء الشعائر التعبدية .

ولسان مقالهم أو حالهم يردد تلك المقولة الجاهلية ، والتي قالها أصحاب مدين لنبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ، ويقولها العلمانيون في زماننا : ما للدين وحجاب المرأة وعملها ، ما للدين والسياسة ، وموالاة الكفار ومحبتهم ، ما للدين والاقتصاد ، ما للدين والإعلام والتعليم . . ! ! إلخ . الدين أن تعبد الله في المسجد ، وتقرأ القرآن ، وتذكر الله ، أما الحياة فلها نظمها التي تتناسب مع تطورها . . إلى آخر هذا الهذيان والانحراف والفجور .

إن هذا الفهم الأعوج هو ما قاله أهل مدين لنبيهم شعيب عليه السلام بعد أن دعاهم إلى التوحيد وترك البخس ، والنقص في المكيال والميزان . قال الله عز وجل : ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ [هود: ٨٧] .

---

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ .

إنهم يقولون، يا شعيب، ما دخل عبادتك وصلاتك في حياتنا الاقتصادية وفي اتباعنا لآبائنا ، وطاعتهم فيما كانوا يعبدون ؟! سبحان الله ! ما أشبه قلوبهم بقلوب الجاهلين في زماننا هذا وما أشبه مقولتهم بمقولة العلمانيين المنافقين المعاصرين ﴿ **أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ [الذاريات: ٥٣] .

ويتحدث سيد قطب رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ **أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ فيقول :

« فهم لا يدركون ـ أو لا يريدون أن يدركوا ـ أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة . وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة ، وفي تداول الأموال ، وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل ، فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة وعن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة . . .

إن بيننا اليوم ـ ممن يقولون : إنهم مسلمون! ـ من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق ، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية .

وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم ، يتساءلون أولاً في استنكار : وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله المتحضرون ؟! . . . فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : ﴿ **أَصَلَاتُكَ**

﴿ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ .

وهم يتساءلون ثانياً ، بل ينكرون بشدة وعنف ، أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد . . فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي ؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده ، وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية ـ النظرية الأخلاقية مثلاً ـ ويعدونها تخليطاً من أيام زمان! . . .

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض ، فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد . والشرك ألوان ، منه هذا اللون الذي نعيش به الآن ، وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان .

ويسخر أهل مدين من شعيب ـ كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق ـ فيقولون : ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ .

وهم يعنون عكس معناها ، فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير ، وأن يفصلوا بين العبادة والمعاملة في السوق ، وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين !!!»[1] اهـ.

---

(١) في ظلال القرآن : عند الآية (٨٧) من سورة هود .

والحاصل مما سبق : أن حصر العبادة في الشعائر التعبدية فقط هو انحراف بالعبادة عن معناها الصحيح الذي يرضاه الله عز وجل ، وأنه لو كان مفهوم العبادة هو السجود والركوع فحسب ، إذن فما معنى قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] ، وما معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] . حيث يعلق الشنقيطي رحمه الله تعالى على هذه الآية ، فيقول :

« فهي فتوى سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله »[1] اهـ.

إذن فإن من أخص خصائص العبادة : الطاعة والاتباع والخضوع والانقياد ، فكما أن العبادة تأتي بمعنى الدعاء والنسك ، فهي تأتي أيضاً بمعنى الطاعة والاتباع ، ولكن الجاهلين أو المتجاهلين يريدون حصرها فقط في الشعائر التعبدية والعبادات الخاصة ثم لا دخل بعد ذلك للعبادة في شئون الحياة وتسيير دفتها .

وإن الذين يرون هذا الفصل المشين والفصام النكد بين الدين والحياة على قسمين :

* إما أن يكونوا جهلة بحقيقة الدين وحقيقة العبادة في الإسلام ؛ إذ لم يكن لهم حظ من العلم الشرعي ينير بصائرهم ، وإنما غاية ما عندهم ثقافات مشوهة من الغرب أو الشرق تسربت إلى قلوبهم على حين غفلة وخواء ، فتمكنت منها .

---

(١) أضواء البيان (٧/ ١٧٠) .

وهؤلاء وأمثالهم الذين انحرفوا بمفهوم العبادة عن معناها الصحيح بسبب جهلهم قد نرى بعضهم من المصلين الصائمين التالين للقرآن الكريم.

وعلاج هذا الصنف من الناس يكون بالعلم الشرعي ، والرفق بهم حتى يفقهوا هذا الدين بمعناه الصحيح .

* والأخطر من أولئك هم الذين يفهمون حقيقة العبادة وحقيقة دين الإسلام ، ولكنهم يستكبرون عن الانقياد لهذا الفهم ، وينطلقون بخبث وغرض سيئ لإثارة الشبهات وصرف المسلمين عن دينهم وتشويه هذه المفاهيم في نفوسهم .

وهؤلاء إن صلوا وقاموا ببعض الشعائر فهو نفاق وزندقة. والحذر من هؤلاء يجب أن يكون على أشده ، كما أن فضح أفكارهم وخططهم هو المتعين ، فهم من المنافقين الذين جاء الأمر الإلهي بمجاهدتهم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التحريم: ٩] .

٥ ـ الانحراف في المفهوم والتطبيق :

ومن مظاهر الانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها ما عرف عن بعض غلاة المتصوفة وزنادقتهم من أن أداء العبادات والطاعات مرتبط بحصول اليقين المطلق ـ زعموا ! فإذا وصل العبد إلى هذا المستوى سقط عنه التكليف ولم يعد في حاجة إلى العبادة التي هي من منازل العامة ! ، أما الخاصة ومن يسمونهم بالأبدال والأقطاب فقد بلغوا درجة اليقين التي ترفع عنهم التكاليف والعبادات ، نعوذ بالله من هذه الحال ، ونبرأ إلى الله عز وجل من أهل الزندقة والإلحاد.

ورحم الله الإمام ابن القيم حيث يوضح معنى اليقين المراد في قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] ، ويؤكد عدم انفكاك العبد عن العبودية لله عز وجل في سائر أحواله وأموره كلها فيقول رحمه الله تعالى :

« قال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] ، وقال أهل النار : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر : ٤٦ ، ٤٧] ، واليقين ههنا : هو الموت بإجماع أهل التفسير ، وفي الصحيح في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « **أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه** »[1] أي الموت وما فيه .

فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف ، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لمَّا يسأله الملكان « من كان يعبد ؟ وما يقول في رسول الله ﷺ ؟ » ، ويلتمسان منه الجواب .

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة ، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون ، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك ، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً .

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه التعبد فهو زنديق كافر بالله ورسوله ﷺ ، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله ، والانسلاخ من دينه ، وكلما تمكن العبد من منازل العبودية كانت عبوديته أعظم ، والواجب عليه منها أكثر من الواجب على من دونه ؛ ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ ،

---

(١) البخاري في مواضع منها / ك الشهادات من حديث أم العلاء (٢٦٨٧) .

بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم ، والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم ، والواجب على أولي العلم أعظم من الواجب على من دونهم ، وكل أحد بحسب مرتبته »[١] اهـ.

٦ ـ هذا . . ومن شطحات الصوفية في مفهموم العبادة أيضاً : المقالة المشهورة عن بعضهم من أنهم لا يعبدون الله خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، وإنما حبّاً له وشوقاً إليه .

وواضح ما في هذا الكلام من تكلف وانحراف عن طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وسؤالهم الله عز وجل جنته والعياذ به من النار .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في معرض رده على هذه المقالة :

« ومن قال من هؤلاء : « لم أعبدك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك» فهو يظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات ، والنار اسم لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات . وهذا قصور وتقصير منهم في فهم مسمى الجنة ، بل كل ما أعده الله لأوليائه فهو من الجنة ، والنظر إليه هو من الجنة ؛ ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار ، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته ، قال : « إني أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ، فقال : « **حولها ندندن** »[٢]»[٣] اهـ.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٣ ، ١٠٤).

(٢) ابن ماجه في الإقامة (٩١٠) ، وفي الدعاء (٣٨٤٧) ، وأبو داود في الصلاة (٧٩٢) وهو في صحيح ابن ماجه (٧٤٨) .

(٣) تفسير ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ لابن تيمية : ت : عبد العلي حامد ص١٣ .

وقال من قال من السلف : « من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري (أي خارجي) ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد » .

إذن فالعبادة الحقة هي التي تجمع بين المحبة والخوف والرجاء والذلة والخضوع كما سبق ذلك في تعريف العبادة وحقيقتها .

* * *

المبحث الثالث
المفهوم الصحيح للتوكل والاستعانة ومظاهر الانحراف والضعف فيهما

التوكل يمكن القول بأنه نصف الدين ، ونصفه الثاني هو : (العبادة) ؛ لأن الدين استعانة وعبادة ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند تفسير ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كما سبقت الإشارة إلى معنى التوكل بشكل مجمل ، وهذا أوان التفصيل في بيان هذا العمل العظيم من أعمال القلوب ، وتفصيل مراتبه ، وأقسامه ، وصور الانحراف والضعف في ذلك ، ويحسن قبل الدخول في هذا التفصيل أن نستعرض الآتي :

بعض الآيات والأحاديث الواردة في التوكل :

فأما الآيات الواردة في التوكل والمتوكلين فهي كثيرة منها :

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢] .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] .

وقوله تعالى عن أوليائه: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤] .

وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩].

وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ .

[النمل : ٧٩]

وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان : ٥٨] .

وقال تعالى عن أنبيائه صلى الله عليهم وسلم : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

وقال عز وجل عن أصحاب نبيه ﷺ : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

[آل عمران : ١٧٣]

وأما الأحاديث فكثيرة أيضاً منها :

* في الصحيحين ، في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب : « هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، ولا يَكْتَوون ، وعلى ربهم يتوكلون »[1] .

* وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ »[2] .

---

(١) البخاري / ك الطب من حديث عمران بن حصين (٥٧٠٥)، ومسلم / ك الإيمان (٢١٨).
(٢) البخاري/ ك التفسير - سورة آل عمران (٤٥٦٣).

* وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « **اللهم لك أسلمتُ وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون** »[(١)] .

* وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[(٢)] .

* وفي السنن عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قال** -يعني إذا خرج من بيته- : **بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : هُديت ووقيت وكفيت ، فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي ؟**»[(٣)] .

تعريف التوكل بمعناه الصحيح :

التوكل عمل قلبي من أعمال القلوب ، وقد وردت له تعريفات كثيرة يكمل بعضها بعضاً لتنتهي مجتمعة إلى حقيقة التوكل ومعناه .

* فمن ذلك ما سبق ذكره عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حين قال :

« فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟ قلت : هو حال للقلب ينشأ

---

(١) مر تخريجه ص ٢٩٨ .

(٢) الترمذي في الزهد (٢٣٤٥) ، وابن ماجه (٤١٦٤) ، وأحمد (١/ ٥٢) ، وصححه الشيخ شاكر (١/ ٢٠٦) ، وهو في صحيح الترمذي (١٩١١) .

(٣) أبو داود / ك الأدب (٥٠٩٥) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢) ، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٧٢٤) .

عن معرفته بالله ، وتفرده بالخلق والتدبير ، والضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاءه الناس فيوجب له هذا اعتماداً عليه ، وتفويضاً إليه ، وطمأنينة به ، وثقة به ، ويقيناً بكفايته ، لما توكل عليه فيه »[1] اهـ.

* ومن ذلك ما نقله الشيخ محمد العثيمين حفظه الله في شرحه لكتاب التوحيد ؛ حيث قال : « التوكل : هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في جلب المطلوب وزوال المكروه مع فعل الأسباب المأذون فيها »[2] .

* وقد نقل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة التوكل تعاريف كثيرة ، قالها بعض أرباب السلوك ، ثم علق عليها بقوله :

« وحقيقة الأمر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور ، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها ، وكلٌّ أشار إلى واحد من هذه الأمور ، أو اثنين أو أكثر .

فأول ذلك : معرفة الرب وصفاته : من قدرته ، وكفايته ، وقيوميته ، وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته . وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل .

الدرجة الثانية : إثبات في الأسباب والمسببات .

الدرجة الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل ، فما دامت فيه علائق الشرك ، فتوكله معلول مدخول .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٢) .

(٢) شرح كتاب التوحيد للشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٨٥).

الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه وسكونه إليه .

الدرجة الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل .

الدرجة السادسة : استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته»[1] اهـ.

تباين الخلق في توكلهم على الله سبحانه وأفضلهم في ذلك :

يوضح الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذه المسألة أتم توضيح ، فيقول:

« فأهل السماوات والأرض ـ المكلفون وغيرهم ـ في مقام التوكل ، وإن تباين متعلق توكلهم:

١ ـ فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان ، ونصرة دينه وإعلاء كلمته ، وجهاد أعدائه ، وفي محابّه وتنفيذ أوامره .

٢ ـ ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه ، وحفظ حاله مع الله ، فارغاً عن الناس .

٣ ـ ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه ؛ من رزق أو عافية ، أو نصر على عدو ، أو زوجة أو ولد ، ونحو ذلك .

٤ ـ ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه ، **فأفضل التوكل** : التوكل في الواجب ـ أعني واجب الحق ، وواجب الخلق ،

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٧ ـ ١٢١).

وواجب النفس . **وأوسعه وأنفعه** : التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية ، أو في دفع مفسدة دينية ، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين في الأرض ، وهذا توكل ورثتهم . ثم الناس بعدُ في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم ، فمن متوكل على الله في حصول الملك ، ومن متوكل في حصول رغيف »[١] اهـ.

ويؤكد ابن القيم رحمه الله تعالى في موطن آخر على أفضل وأعظم التوكل ، فيقول :

« التوكل على الله نوعان :

أحدهما : توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية ، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية .

والثاني : التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه .

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية ، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضاً ، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه . فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية ، وتجريد التوحيد ، ومتابعة الرسول ، وجهاد أهل الباطل . فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم »[٢] .

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٣، ١١٤).

(٢) الفوائد/ ٨٦ .

أقسام التوكل وأنواعه

١ـ توكل الموحدين الصادقين :

وحقيقته الاعتماد على الله عز وجل والثقة بكفايته مع فعل الأسباب المأذون فيها من غير اعتماد عليها ولا ركون إليها ؛ فخالق الأسباب ومسببها هو الله وحده .

٢ـ التوكل الشركي :

وهو قسمان :

أ ـ « الاعتماد الكلي على الأسباب واعتقاد أنها تؤثر استقلالاً في جلب المنفعة أو دفع المضرة ، وهذا من الشرك الأكبر »[١] .

ب ـ الشرك الأصغر وهو « الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك من غير اعتقاد استقلاليته في التأثير ، لكن التعلق به فوق اعتقاد أنه مجرد سبب ، مثل اعتماد كثير من الناس على المالية في الراتب ، ولهذا تجد أحدهم يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا الراتب ، أو من يقرر الراتب اعتماد افتقار ، فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر »[٢] اهـ .

٣ـ التوكيل الجائز :

« وهو أن يُوكِّلَ الإنسان في فعل يقدر عليه ، فيحصل للموكِّل بذلك

---

(١) انظر شرح كتاب التوحيد للشيخ العثيمين (٢/ ١٩٠ ، ١٩١) .

(٢) المرجع السابق .

بعض مطلوبه ، فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله وحده »[١] . « كمن وكَّل شخصاً في شراء شيء أو بيعه ، فهذا لا شيء فيه ؛ لأنه اعتمد عليه وكأنه يشعر أن المنزلة العليا له فوقه ؛ لأنه جعله نائباً عنه . وقد وكل النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه ، ووكل أبا هريرة على الصدقة ، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له أضحية »[٢] اهـ.

ولكن توكيل المخلوق غايته أن يفعل بعض المأمور ، وهو لا يفعله إلا بإعانة الله له ، فرجع الأمر كله لله وحده .

ضوابط الأخذ بالأسباب :

تبين مما سبق أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل ، بل إنَّ تركها قدح في حكمة الله عز وجل ونقصان في العقل . ولكن الأخذ بالأسباب لابد له من ضوابط تقي من الوقوع في الشرك الناشئ من التعلق بها والاعتماد عليها . ومن أهم الضوابط ما يلي :

١ ـ « الاعتقاد بأنها لا تستقل بالمطلوب ، بل تتعاطى من غير ركون إليها ، ومع هذا فلها موانع ، فإن لم يكمل الله الأسباب ، ويدفع الموانع لم يحصل المقصود ، وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الخلق ، وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاءه الخلق»[٣] .

٢ ـ « ألا يعتقد في الشيء أنه سبب إلا بعلم وتحقق ، فمن أثبت سبباً بلا

---

(١) انظر جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٨٩).

(٢) انظر شرح كتاب التوحيد للشيخ العثيمين (٢/ ١٩٠ ، ١٩١).

(٣) انظر توحيد الخلاق للشيخ سليمان بن عبد الله ص١٦٩ ـ ١٧٢ .

علم ، أو بما يخالف الشريعة كان مبطلاً في إثباته آثماً في اعتقاده »[١] .

٣ ـ « أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يُتخذ شيء منها سبباً ، إلا أن يكون مشروعاً ، فإن العبادات مبناها على التوقيف ، فلا يتقرب إلى الله عز وجل بالأعمال الشركية أو البدعية أو نحوها »[٢] .

٤ ـ « إذا لم يوجد من الأسباب في تحصيل المطلوب إلا سبباً محرماً فلا يجوز مباشرته ولا الأخذ به ، وتوحد السبب في حقه في التوكل على الله عز وجل فلم يبق سبب سواه ، فإنه من أقوى الأسباب في حصول المراد ، ودفع المكروه ، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق »[٣] .

٥ ـ « إن كان السبب مباحاً نُظر ؛ هل يضعف القيام به التوكل أو لا يضعفه ، فإن أضعفه وفرق على العبد قلبه وشتت همه فتركه أولى ، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى ؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به ، فلا تعطل حكمته مهما أمكن القيام بها ، لا سيما إذا كان الأخذ بالسبب عبودية لله عز وجل ، فيكون العبد قد أتى بعبودية القلب بالتوكل ، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة »[٤] .

٦ ـ « إن القيام بالأسباب على نحو ما سبق هو الذي يحقق التوكل ، فمن عطل الأسباب المأمور بها لم يصح توكله ، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه ، فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنياً ،

---

(١) انظر توحيد الخلاق للشيخ سليمان بن عبد الله ص ١٦٩ ـ ١٧٢ .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر الفوائد لابن القيم ص ٨٦، ٨٧ .

(٤) انظر المصدر السابق .

كما أن من عطلها يكون توكله عجزاً أو عجزه توكلاً »[١] .

٧ ـ « وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفعه قوله : « توكلت على الله » مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء ؛ فقول العبد : توكلت على الله . مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله : « تبت إلى الله » وهو مصرٌّ على معصيته مرتكب لها »[٢] .

* * *

(١) انظر الفوائد لابن القيم ص ٨٦، ٨٧ .

(٢) انظر المصدر السابق .

بعض مظاهر الانحراف والضعف في مفهوم التوكل وتطبيقه

بعد أن اتضح لنا في المبحث السابق حقيقة التوكل والفهم الصحيح له ومراتب الناس فيه ، فيجدر بنا الآن أن نتعرف على بعض مظاهر وصور الانحراف التي طرأت على هذا العمل العظيم من أعمال القلوب، وما كان لهذا الانحراف من أثر سيئ على بعض أبناء الأمة في عجزهم ، أو تعلقهم بغيرهم ، أو تركهم لما يجب الأخذ به ، وما إلى ذلك من الآثار السيئة والنتائج الوخيمة .

هذا ، ولقد كان للفكر الصوفي المنحرف وظهور الفرق أكبر الأثر في انتشار هذه المظاهر من الانحراف ، يضاف إلى ذلك ما ساهم به الغزو الفكري لهذه الأمة من نشر للمذاهب المادية ، والتي لا تربط النتائج إلا بالمادة المحسوسة ، وتلغي جانب الغيب والإيمان بالله عز وجل وقضائه وقدره وملكه وقهره وعظمته ، وما كان لهذه الأفكار كلها أن تؤثر لو كان العلم وفهم العقيدة الصحيحة منتشراً بين الأمة .

ولكن لما وافق هذا جهل عند البعض من المسلمين بحقيقة هذا الدين وأصوله ؛ نشأ من ذلك بعض المفاهيم المغلوطة للتوكل كما نشأ الضعف في التطبيق لهذه العبادة العظيمة .

وفي الفقرات التالية أستعرض بعض صور الانحراف والضعف في هذا الجانب المهم من جوانب العقيدة ، لعلنا نتفقده في أنفسنا أو عند غيرنا حتى نتجنبه ، ونحذر منه ، ونزيل الغبش عنه ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

ومن أهم مظاهر الانحراف في ذلك ما يلي :

١ ـ النظر إلى التوكل على أنه تواكل وترك للأسباب ، والذين وقعوا في هذا الانحراف على صنفين :

أ ـ صنف يعلم أن التوكل لا ينافي فعل الأسباب ، والأمر واضح عنده بلا شبهة ، ولكنه ينطلق من هذا الفهم المنحرف في تبرير عجزه وكسله وتفريطه ، فهذا عجزه توكل ، وتوكله عجز ، وهذا الصنف من الناس لا ينقصه إلا أن يتقي الله عز وجل ، وألا يبرر شهوته بشبهة ، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمودُ الكامل بالمذموم الناقص ، فيشتبه التفويض بالإضاعة ، فيضيّع العبد حظه ؛ ظنّاً منه أن ذلك تفويض وتوكل ، وإنما هو تضييع لا تفويض . فالتضييع في حق الله والتفويض في حقك .

ومنه : اشتباه التوكل بالراحة وإلقاء حمل الكَلِّ ، فيظن صاحبه أنه متوكل ، وإنما هو عامل على عدم الراحة . . .

ومنه : اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز . والفرق بينهما : أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ، ووثق بالله في طلوع ثمرته ، وتنميتها وتزكيتها ،

كغارس الشجرة ، وباذر الأرض . والمغتر العاجز قد فرط فيما أمر به ، وزعم أنه واثق بالله ، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود »[١] اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن هذا الصنف من الناس :

« وهم من ذلك ملبوس عليهم ، وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة ؛ ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك ، فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة ، وإما أن يتركوا - لأجل ما تبتّلوا له من الغلو في التوكل - واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك ، كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء ، أو نيل رزقه بلا سعي ، فقد يحصل ذلك ، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير وصرف تلك الهمّة والتوجه في عمل صالح - أنفع له، بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه »[٢] اهـ.

ب - أما الصنف الثاني فقد أُتي من جهله بحقيقة التوكل على الله عز وجل ، وجهله بسنن الله سبحانه في ارتباط المسببات بالأسباب ، وأن الأخذ بالأسباب بضوابطها الموضحة سابقاً لاينافي التوكل ، بل إن تركها قدح في حكمة الله عز وجل ، ونقص في العقل ، وما علم صاحب هذا الفهم أن التوكل عليه سبحانه هو أقوى الأسباب في حصول المطلوب ودفع المكروه .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٣، ١٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٨٣) .

يقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى :

« واعلم أن تحقيق التوكل لا يُنافي السعي في الأسباب التي قدَّر الله سبحانه المقدورات بها ، وجرت سنته في خلقه بذلك ، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكُّل ، فالسَّعي في الأسباب بالجوارح طاعةٌ له ، والتوكل بالقلب عليه إيمانٌ به ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: ٧١]، وقال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، وقال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] »[1] .

ويتحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عن توكل الرسول ﷺ وصحابته الكرام مع أخذهم بالأسباب فيقول :

« وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يوم أحد ، ولم يحضر الصف قط عرياناً ، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة ، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه ، يدله على طريق الهجرة ، وقد هدى الله به العالمين ، وعصمه من الناس أجمعين ، وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين .

وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد ، وجميع أصحابه وهم أولو التوكل حقّاً، وأكمل المتوكلين بعدهم: هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة ، أو لحق أثراً من غبارهم .

فحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها ، بها يعلم صحيحها من سقيمها ، فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٩٨ ، ت : الأرناؤوط .

بعدهم ، فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب ، وأن يُعبد الله في جميع البلاد ، وأن يوحده جميع العباد ، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد ، فملأوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً ، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان ، وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً .

فكانت همم الصحابة رضي الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي فيجعله نصب عينيه ، ويحمل عليه قوى توكله»[1] .

٢ ـ ويقابل الانحراف السابق انحراف في الجانب المقابل ، ألا وهو الإفراط في فعل الأسباب والتعلق بها محبة وخوفاً ورجاءً ، ومعلوم ما في هذا الانحراف من خطر شديد على التوحيد ، فهو إما شرك أكبر إذا اعتقد فاعل الأسباب أنها تؤثر استقلالاً ، وإما شرك أصغر إذا لم يعتقد ذلك ، ولكنه تعلق بها وحابى من أجلها ، وجعل أكثر اعتماده عليها في حصول المطلوب وزوال المكروه .

وما أكثر من يقع منا في هذا الضعف القادح في التوكل على الله عز وجل ، ولكن مابين مقل ومكثر ، وإن وجد من يحقق التوكل على الله عز وجل في أمور الدنيا فإن المحققين له في العبادة وأمور الآخرة أقل وأقل ، وفي ذلك يقول الشيخ ابن عثيمين حفظه الله :

« ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل ، وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل ، بل نعتمد

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٣٤ ، ١٣٥).

في الغالب على الأسباب الظاهرة ، وننسى ما وراء ذلك ؛ فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكل ، كما أننا لا نوفق إلى كمال العبادة ، كما هو الغالب ، سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها »[1] اهـ.

والتوكل على الله عز وجل يجب أن يكون في جميع الأمور ، ولكن فرق بين من يجعل قوة توكله في أمور الدين وبين من يجعله في أمور الدنيا.

ويصف الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى من صرف قوة توكله في أمر دنيوي يناله بأيسر شيء بأنه مغبون؛ لأن أمر الدين ونصرته وزيادة الإيمان هي التي ينبغي أن يصرف العبد فيها قوة توكله . يقول رحمه الله :

« وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله ، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون ، كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ، ويمكنه نيلها بأيسر شيء ، وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ، ونصرة الدين ، والتأثير في العالم خيراً ، فهذا توكل العاجز القاصر الهمة.

كما يصرف بعضهم همته وتوكله ، ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء ، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف ، أو نصف درهم ، ويدع صرفه إلى نصرة الدين وقمع المبتدعين ، وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين ، والله أعلم»[2] اهـ.

---

(١) شرح كتاب التوحيد للشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٩٠).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥، ١٢٦).

وهنا حديث مشهور يُستدل به على فعل الأسباب ، مع أن فيه دليلاً أيضاً على التعلق بالله وحده في طلب الرزق ، وألا يحمل العبد هم رزقه أو يخاف ممن يقطعه، فمن توكل على الله وحده كفاه ، وهذا الحديث هو ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً**»[1] .

ففي هذا الحديث وصف لحال الطير الضعيف الذي يبيت ليله لا يحمل هم رزق غده ، ولكنه ينطلق في الصباح غير معتمد على قوته ولا حذره ، فيرزقه الله عز وجل ويكفيه ، فلو أننا فعلنا الأسباب ولم نتعلق بها ، وإنما تعلقنا بالله وحده وفوضنا أمورنا إليه ووثقنا بمعونته وكفايته، لرزقنا كما يرزق الطير ، لكن الكثير منا على خلاف ذلك ، نعم، نقول بألسنتنا : توكلنا على الله ، ونعتقد أن الله وحده هو الخالق الرازق المتصرف في كل شيء، والذي بيده النفع والضر ، ولكن عند التطبيق يظهر الضعف والنقص . فترى بعضنا يعتمد على قوته أو حذره أو ذكائه ، أو يعتمد على شخص أو هيئة أو يخاف من جهة معينة أن تقطع رزقه أو تؤخره أو تحوله .

ولو أننا أيقنا أن ا لمخلوق الضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن أن يملكه لغيره ، لنفضنا اليد منه ، ولم تتعلق القلوب به، ولم ترجه ، ولم تخفه وإنما تتوجه القلوب إلى ربها وخالقها ومعبودها سبحانه خالق الأسباب والمسببات، والذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو على كل شيء قدير .

---

(١) مر تخريجه ص٣٤٧.

وسيأتي زيادة بيان حول افتقار العبد إلى ربه عبادة وتوكلاً ، ومفاسد التعلق بالمخلوق الضعيف ، وما ينتج عن ذلك من خسارة وخذلان ، وذلك في مبحث تالٍ إن شاء الله تعالى .

٣ ـ ومن مظاهر الانحراف في مفهوم التوكل ما ينقل عن بعض غلاة المتصوفة من أن التوكل من مقامات العامة ، لا من مقامات الخاصة ، ومنشأ هذا الانحراف أتى من ظنهم أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا ، كما هو شأن عامة الناس ، وهذا غلط ، فإن أعظم ما يُتوكل على الله فيه الأمور الدينية ، وحفظ الإيمان ، وجهاد أعداء الله عز وجل ، ورجاء ثوابه سبحانه ، ويمكن أن يقال : إن من كان توكله على الله عز وجل في كل أموره ، لكنه في أمور الدين والإيمان والآخرة أكثر ، فإنه يكون أكمل وأصح توكلاً ممن قصره على حظوظ الدنيا ومطالبها .

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« ولكن هذه « المقامات » ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم . فللخاصة خاصها ، وللعامة عامها ، مثال ذلك أن هؤلاء قالوا : « إن التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت ، والخاص لا يناضل عن نفسه . وقالوا : المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور ، والعارف يشهد الأمور بفروعها منها ، فلا يطلب شيئاً » .

فيقال : أما الأول ؛ فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا ، فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه ، وحفظ لسانه وإرادته ، وهذا أهم الأمور إليه ، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله :

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع ؛ لأن هذين يجمعان الدين كله ؛ ولهذا قال من قال من السلف : إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصل ، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب ، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

وعلى هذا فالذي ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا ، وهو غلط ، بل التوكل في الأمور الدينية أعظم»[1] اهـ.

٤ ـ جبن القلب والخوف من المخلوق :

إن مما ينافي حقيقة التوكل الخوف من المخلوق خوفاً يدفع إلى ترك ما يجب أو فعل ما يحرم محاباة للمخلوق أو خوفاً من شره ، ومثل ذلك يكون أيضاً في الطمع والرغبة ، فالطمع في نفع المخلوق أو الخوف من شره إذا أدى إلى ضعف التعلق بالله عز وجل وضعف الثقة به سبحانه فإن هذا يقدح في التوكل، ويضعفه إن لم يذهبه ، ومن تعلق بشيء وكل إليه ، ومن وكل إلى غير الله عز وجل ضاع وهلك ، وخاب وخسر . ومما يصلح التمثيل به في عصرنا اليوم على هذا الضعف ، هو ما يعتري بعضنا وهو في دعوته إلى الله عز وجل من خوف على نفسه أو رزقه أو منصبه ، الأمر الذي يؤدي بالبعض إلى ترك ما هم عليه من تعليم للعلم أو دعوة إلى الله عز وجل، والإحجام عن مجالات الخير ، ونفع الناس بحجة الحذر والبعد عن الفتن .

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨ ـ ٢٠) باختصار .

والله سبحانه أعلم بما في قلوب العالمين .

ثم إنه لو كان يغلب على الظن حصول الأذى والابتلاء لكان لذلك بعض الوجه في الأخذ بالرخصة وترك العزيمة ، أما وإن الأمر على العكس من ذلك ؛ حيث يغلب على الظن عدم التعرض للأذى ، فإنه لا تفسير لهذه المواقف إلا ضعف التوكل على الله عز وجل ، والوسوسة الشديدة ، والمبالغة في الخوف، والحذر الزائد من المخلوق الضعيف وتهويل أمره ، وهذا من كيد الشيطان ووسوسته ، وكأننا لم نسمع ولم نع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

[آل عمران : ١٧٥]

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى :

« والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل وأن يتضخم الشر ، وأن يتبدى قوياً قادراً باطشاً جباراً ، لا تقف في وجهه معارضة ، ولا يصمد له مدافع ، ولا يغلبه غالب . الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا ، فتحت ستار الخوف والرهبة ، وفي ظل الإرهاب والبطش يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه ، يقلبون المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، وينشرون الفساد والباطل والضلال ، ويخفتون صوت الحق ، والرشد والعدل . . .

والشيطان ماكر خادع غادر يختفي وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم في صور الذين لا يحتاطون لوسوسته . . . ومن هنا يكشفه الله ويوقفه عارياً ، لا يستره ثوب من كيده ومكره ، ويُعرِّف المؤمنين الحقيقة ؛ حقيقة مكره

ووسوسته ؛ليكونوا على حذر ، فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولايخافوهم، فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ، ويستند إلى قوته»[1] اهـ.

* * *

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن (٢/ ١٥١) .

المبحث الرابع
بعض لوازم العبادة الحقة والتوكل الصادق وبعض ثمارهما

بعد أن تبين لنا المفهوم الصحيح للعبادة كما يريدها الله عز وجل ، وكذلك المفهوم الحق للتوكل باعتباره أثراً عظيماً من آثار العبادة الحقة ، نتعرف الآن على بعض لوازمهما ومقتضياتهما وما تثمرانه في النفس والحياة من آثار عظيمة القدر والنفع في الدنيا والآخرة .

فإن لم تظهر هذه الآثار واللوازم فإن هناك دَخَلاً وانحرافًا في فهم أو تطبيق هذين الأصلين العظيمين ، فالعبرة بما يظهر من الآثار لعبادة الله عز وجل والتوكل عليه ، وليست بمجرد قول القائل بلسانه : آمنت بالله ، وأنبت إلى الله ، وتوكلت على الله . فالعبرة بالحقائق لا بالصور ، وبالاستسلام والإذعان لا بالقول باللسان فحسب . ومن هذه الآثار واللوازم ما يلي :

١ ـ الدخول في السلم كافة :

والعبودية لله عز وجل تقتضي الدخول في السلم كافة ، وإنفاق العمر كله في عبادة الله عز وجل ، لا يخرج العبد فيها عن وصف العبودية لحظة واحدة من لحظات العمر ، وهذا يقتضي أن تكون جميع حركات العبد وسكناته منبثقة من العبودية لله سبحانه والاستسلام لشرعه ، فهو عبد مطيع لربه في مسجده ، وفي بيته ومدرسته ، وفي متجره ، وفي عمله ، وفي حكمه

وتحاكمه ، وفي حبه وبغضه، وعطائه ومنعه، وبهذا يتحقق وصف العبودية التامة لله عز وجل ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

وبهذا الفهم والتطبيق تختفي تلك الصور المنحرفة لفهم العبادة وتطبيقها المنحرف أيضاً مثل أن تحصر العبادة في المسجد أو في شعائر التعبد فقط ، ولا دخل لها بعد ذلك في شئون الحياة ، «كما سبق بيان ذلك في مبحث سابق »[1] .

٢ـ الحكم بشرع الله عز وجل والتحاكم إليه وحده ورفض ما سواه :

إن من لوازم العبودية الصادقة لله عز وجل محبة شرعه وحكمه وبغض ورفْض ما يضاده ؛حيث يمتنع ادعاء محبة الله عز وجل ومحبة ما يكرهه أوترك ما يحبه كما يمتنع ادعاء محبة رسوله ﷺ ومتابعته مع ترك سنته والحكم بشريعته. ولقد مر بنا في بيان شرطي العبادة وقبولها أنها قائمة على الإخلاص لله سبحانه والمتابعة لرسوله ﷺ .

إذن فالعبودية له سبحانه تقتضي محبة شرعه والحكم به والتسليم له ورفض ما سواه من أحكام البشر الجاهلة الجائرة الفاسدة المفسدة ، قال تعالى : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] .

---

(١) انظر الانحراف في مفهوم العبادة ص٣٢٨ وما بعدها .

٣ـ العزة والشرف والتحرر الحقيقي :

إن العزة وكمال الشرف ، والحرية الكاملة من عبودية البشر لا تكون إلا في تحقيق العبادة لله عز وجل والاستعانة به وحده . وعلى العكس من ذلك فإن الذلة والمهانة والرق الحقيقي هو في الابتعاد عن عبادة الله تعالى وطاعته ؛ لأن أي مكلف يرفض الدخول في عبادة الله عز وجل ، فلابد أن يدخل في عبودية غيره من المخاليق الضعفاء ، ومعلوم ما في استعباد المخلوق لمخلوق مثله من الذلة والرق والظلم والفساد . وهذه سنة الله عز وجل في عباده .

والإنسان لا يبلغ كماله الحقيقي وشرفه الأعلى إلا في العبودية لله وحده والرفض الكامل لعبودية ما سواه ، وهذا الكمال البشري هو الذي وصل إليه أنبياء الله ورسله عليهم الصلاةوالسلام وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ ، وهو الذي خاطبه ربه سبحانه في أعلى مقاماته التي وصل إليها : مقام تلقي الوحي ، ومقام الإسراء ، خاطبه فيهما بوصف العبودية ؛ لأنها أرقى وأعظم وأشرف منزلة يصل إليها الإنسان .

قال تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا** ﴾ [الكهف : ١] ، وقال تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا** ﴾ [الإسراء : ١] .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« إن الدينونة لله تحرر البشر من الدينونة لغيره ، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية ، وحريته الحقيقية ، هذه الحرية وتلك اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر ـ

غير النظام الإسلامي ـ يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية ، في صورة من صورها الكثيرة . . . سواء عبودية الاعتقاد ، أو عبودية الشعائر ، أو عبودية الشرائع . . فكلها عبودية ، وبعضها مثل بعض ؛ تخضع الرقاب لغير الله ، بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله .

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين ! لابد للناس من دينونة ، والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله في كل جانب من جوانب الحياة !

إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط ، ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ، ويندرجون في عالم البهيمة : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ [محمد: ١٢] ، ولا يخسر الإنسان شيئاً كأن يخسر آدميته ، ويندرج في عالم البهيمة ، وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده ، والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة . . .

وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، التي تصبح كلها ولا عاصم لها عندما يدين العباد للعباد في صورة من صور الدينونة ، سواء في صورة حاكمية التشريع ، أو في صورة حاكمية الأعراف والتقاليد ، أو في صورة حاكمية الاعتقاد والتصور . . . »[1] اهـ.

وللشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله تعالى كلام نفيس حول هذا

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٩٣٩ ، ١٩٤٠) ط/ الشروق .

الموضوع المهم ، أنقله لأهميته ، قال رحمه الله تعالى عند تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ :

« بتحقيق العمل بمدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ينجو الإنسان ويسلم من الرق المعنوي الذي هو أفظع وأنكى من كل رق حسي ؛ لأن الرق الحسي يشعر به صاحبه ، فيتمنى انتهاءه ، ويسعى لإزالته والتخلص منه حسب مجهوده ، ولكن الرق المعنوي لا يشعر به صاحبه ، بل على العكس ينقلب تصوره له تحرراً وتقدماً ، فيتمادى باستحسان حالته ، دون أن يخالجه أدنى شيء من الامتعاض والإحساس .

وكل من لم ينشغف وينشغل بعبادة الله ويحصر اتجاهه عليها واستعانته به جل وعلا ، فإنه لابد من أن يبتلى بنوع أو أنواع من الرق المعنوي المذيب لشخصيته من حيث لا يشعر ، فمنهم من تسترقه شهواته ، وتجعله عبداً لمرذول أو مرذولة ، لا يرضى هو أن يكونوا من عبيده لو كان متحرراً من الرق المعنوي ، مستبصراً بالبصيرة الفطرية ، ولكن الرق المعنوي يجعله مغرماً بهذا أو هذه أو بهما جميعاً ؛ فيكون منشغفاً بقشر الجمال الذي سلب عقله ، واسترق أحاسيسه وجوارحه؛ يتغنى بأوصافه ، ويفديه بنفسه وروحه التي لا تعدلها الدنيا جميعها ثمناً لو عرف قيمة نفسه ، بل يجهد نفسه في تحصيل الرضا أو طلب الوصال ممن يجب بغضه أو الابتعاد عنه ، لو ملك العقل الفطري الذي يرفعه عن الرق المعنوي ، وأحوال هذا القسم ظاهرة للعيان من أقدم العصور إلى أحدثها ، تشهد عليهم اعترافاتهم في أشعارهم، كما قال قائلهم :

بنفسي أفدي خاله فـــوق خده ومن أنا بالدنـــيا فأفـــديه بالمال

وكما قال الآخر :

بنفسي من لو مر بـــرد بـــنانه عـلى كبدي كانت شفاءً أنامله

ولا شك أن الإنسان عبد لما أحب ، فالمتعلق بحب الشهوات هو للهوى والشهوات رقيق لها دائماً ، والمتعلق بحب المال والمتاع هو عبد لصنوف المال والمتاع ، يعيش منهوماً لا يشبع ، وسكران لا يفيق ، تسترقه وتستعبده مطامعه المسعورة المتكررة .

والمسلم المؤمن الصادق لا يرتبط في جميع أحوال سيره بعجلة أحد ولا تبعية أحد لسلامته من الرق المعنوي بإخلاص مقاصده لله ، وكونه مستعيناً به فقط ، فلا يخشى من أي قوة ، ولا يستعين بكتلة على كتلة أخرى ؛ حتى لا يصغي إلى ما تمليه .

وأصحاب الرق المعنوي يعادون الحر الذي على هذه الشاكلة بدافع من طبيعتهم السافلة ، أو بإملاء من أسيادهم الذين يركنون إليهم ، ولا سبيل لتطهير قلوبهم من ذلك إلا بما يحرر أرواحهم من القيام بتحقيق مدلول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ »[1] اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« إذ الرق والعبودية في الحقيقة : هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده ، فالقلب عبده ، ولهذا يقال :

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٧).

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

وقال القائل :

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حراً

إلى أن قال رحمه الله تعالى :

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ، ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته ، قويت عبوديته ، وحريته عما سواه ، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له ، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه ، كما قيل : استغن عمن شئت تكن نظيره ، وأفضل على من شئت تكن أميره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره . . .

ويقول أيضاً :

فإن أسْر القلب أعظم من أسْر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ، فإن من استُعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالي ما دام قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص ، وأما إذا كان القلب ـ الذي هو ملك الجسم ـ رقيقاً مستعبداً ، متيماً لغير الله ، فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية الذليلة لما استعبد القلب . . . فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس ، قال النبي ﷺ : «**ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس**»[1] »[2] اهـ.

وقال أيضاً : « وإذا تبين هذا ، فكلما ازداد القلب حبّاً لله ، ازداد

(١) البخاري (٦٤٤٦) الرقاق ، ومسلم (١٠٥١) الزكاة .

(٢) العبودية : ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ .

عبودية وحرية عما سواه ، وكلما ازداد له عبودية، ازداد له حباً وحرية عما سواه »[١] .

٤ـ سلامة السلوك والتزام أوامر الله سبحانه وترك معاصيه ودوام مراقبته :

وهذا من أعظم ثمار العبادة وآثارها ، وإلا فما قيمة عبادة لا تثمر طاعة المعبود واجتناب معاصيه ، ومحبة محابه وبغض ما يبغضه. وإن التساهل في التزام ما يحبه الله عز وجل من الأخلاق الفاضلة وترك مساوئها يؤول في نهاية الأمر إلى خلل في عبادة الله سبحانه وتوحيده . وإلى هذا نبه العلماء الربانيون وحذروا .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه ، فأي شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه ، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر ، وكالمرآة الصافية جداً أدنى شيء يؤثر فيها ، ولهذا تشوشه اللحظة ، واللفظة ، والشهوة الخفية ، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده ، وإلا استحكم وصار طبعاً يتعسر عليه قلعه »[٢] .

ويقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« إن عبودية الله تقتضي إشغال جميع الجوارح والأحاسيس في طاعة الله وامتثال أمره ؛ لينحصر الاتجاه إليه سبحانه وتعالى في كل ما ركبه في جسم

---

(١) العبودية : ٤٥ .

(٢) الفوائد ص ١٨٤ .

الإنسان ، كما تقتضي كفها وصيانتها عن الانشغال بما لا يرضي الله من كل محرم ومكروه ، وعن الانهماك في المباحات المشغلة »[١] اهـ.

ويقول أيضاً :

« فالعابد لله يراقب الله بمحاسبة نفسه على كل خطرة أو نظرة ، وعلى كل حركة وسكون ليصقل قلبه من سواد المعصية فعلاً ، والتقصير بالطاعة تركاً؛ خائفاً من لقاء الله بقلب أسود ، فإذا تدنس ثوبه ذكر دنس قلبه ، فسعى لتنقيته وتطهيره قبل ثوبه لقوة معرفته أنه محل نظر الله »[٢] اهـ.

وأنه لا شيء يضبط السلوك ويأطر النفس على محاسن الأخلاق وترك سيئها مثل عبادة الله عز وجل ، والخوف منه سبحانه ، ورجاء ثوابه ومراقبته في كل حين ، وإذا لم يوجد هذا الشعور فإنه لا تنفع أي محاولة مهما كانت في تهذيب سلوك الناس . ولنأخذ على ذلك مثالاً ؛ ألا وهو تحريم الخمر ومحاربة المخدرات ، وما هو الفرق في علاج النفس البشرية والمجتمع الإنساني بين منهج الله عز وجل والمناهج الجاهلية ، فيقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« أما في أمريكا ، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانوناً في سنة ١٩١٩ سمي قانون « الجفاف » ! من باب التهكم عليه ، لأنه يمنع « الري » بالخمر ! ، وقد ظل هذا القانون قائماً مدة أربعة عشر عاماً حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة ١٩٣٣ .

وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما

---

(١) صفوة المفاهيم والآثار (١/ ١٦٢) .

(٢) المصدر السابق (١/ ١٥٩) .

والمحاضرات للدعاية ضد الخمر ، ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات ، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم من مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن ٢٥٠مليون جنيه ، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس ، وسجن كذلك ٥٣٢,٣٣٥ نفساً ، وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه ، وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه . . وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون .

فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي ببعض آيات من القرآن ، وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية وفي علاج المجتمع الإنساني . . بين منهج الله ، ومناهج الجاهلية قديماً وحديثاً على السواء!

لقد تمت المعجزة ؛ لأن المنهج الرباني أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة . . أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله فيها حضوراً لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان . . أخذها جملة لا تفاريق . . وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة .

لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغاً تملؤه بنشوة الخمر ، وخيالات السكر ، وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء . . في الهواء . . ملأ فراغها باهتمامات ، منها : نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها من تيه الجاهلية الأجرد ، وهجيرها المتلظي ، وظلامها الدامس ، وعبوديتها المذلة ، وضيقها الخانق ، إلى رياض الإسلام البديعة ، وظلاله الندية ، ونوره الوضيء ، وحريته الكريمة ، وسعته التي تشمل الدنيا والآخرة . .

إنها لم تكن كلمات . . هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة . . إنما كان منهج ؛ منهجٌ هذه الكلمات متنه وأصله ، منهج من صنع رب الناس ، لا من صنع الناس ، وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج ، لا تؤدي إلى كثير ! . . .

فمتى يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج غير منهج العليم الخبير ؟ وأن يشرعوا للناس قواعد غير التي شرعها الحكيم البصير ؟ وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير ؟ متى ؟ متى ينتهون عن هذا الغرور ؟؟؟ »[1] اهـ.

٥ ـ الإقدام والشجاعة ، والثبات على الحق ، والطمأنينة :

الصادق مع الله عز وجل في عبادته واستعانته به سبحانه لا تراه إلا رابط الجأش شجاع القلب ثابتاً على مبدئه مستهيناً بالباطل وأهله ، وكيف لا وهو يأوي إلى ربه القوي العزيز رب كل شيء ومليكه ، يعبده ويستعينه ، ويفوض أمره كله إليه .

ولقد قص الله تعالى علينا في كتابه الكريم خبر أنبيائه وصفوته من خلقه ، وكيف كان ثباتهم وشجاعتهم وتحديهم لأقوامهم الذين يملكون العدد والعتاد ، ومن ذلك ما ذكره سبحانه عن نبيه ورسوله نوح عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ** ﴾ [يونس: ٧١] .

---

(١) في ظلال القرآن عند الآية (٤٣) من سورة النساء .

وكذلك قال عن هود عليه السلام لما قال له قومه : ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦] .

وقال عن خاتم أنبيائه محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٥، ١٩٦] .

وأخبرنا سبحانه عن أصحاب محمد ﷺ عندما تحزبت عليهم الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم يوم الخندق، فقال : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وقال عنهم يوم أحد عندما خوّفهم مَنْ خَوّفهم برجوع المشركين مرة أخرى لقتالهم ، وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والجراحات فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤] .

والأمثلة في ذلك كثيرة وكثيرة ، ولنرجع إلى ما علق به بعض المفسرين على قصة هود عليه السلام مع قومه ، يقول القرطبي رحمه الله تعالى عن هذه القصة :

« قوله : ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي : أنتم وأوثانكم في عداوتي وضري .

﴿ ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾ أي : لا تؤخرون ، وهذا القول مع كثرة الأعداء يدلّ على كمال الثقة بنصر الله تعالى ، وهو من أعلام النبوة أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ ، وكذلك قال النبي ﷺ لقريش . وقال نوح عليه السلام : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُم ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ أي : رضيت بحكمه، ووثقت بنصره ، ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ ﴾ أي : نفس تدب على الأرض ، وهو في موضع رفع بالابتداء ﴿ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أي : يصرفها كيف يشاء ويمنعها مما يشاء ، أي : فلا تصلون إلى ضري »[1] اهـ.

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه القصة بقوله :

« وإن الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى ، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي ؛ ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس ! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة ، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم، ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي، لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم .

إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد، ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب .

إنه الإيمان والثقة والاطمئنان ، الإيمان بالله ، والثقة بوعده ، والاطمئنان إلى نصره . . الإيمان الذي يخالط القلب ، فإذا وعد الله بالنصر حقيقة

---

(١) تفسير القرطبي عند الآيات ٥٤ ـ ٥٦ من سورة هود .

ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة ؛ لأنها ملء يديه ، وملء قلبه الذي بين جنبيه ، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب ، إنما هي حاضر واقع تتملاه العين والقلب ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود: ٥٤] .

إني أشهد الله على براءتي مما تشركون من دونه . واشهدوا أنتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم : إنني عالنتكم بالبراءة مما تشركون من دون الله، ثم تجمَّعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أن أحدها مسّني بسوء ، تجمعوا أنتم وهي ـ جميعاً ـ ثم كيدوني بلا ريث ولا تمهل ، فما أباليكم جميعاً ، ولا أخشاكم شيئاً . . ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ [هود : ٥٦].

ومهما أنكرتم وكذبتم ، فهذه الحقيقة قائمة ، حقيقة ربوبية الله لي ولكم، فالله الواحد هو ربي وربكم ، لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة . . ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] .

وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض ، بما فيها الدواب من الناس .

والناصية أعلى الجبهة ، فهو القهر والغلبة والهيمنة ، في صورة حسية تناسب الموقف وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم . . وإلى جانبها تقرير استقامة السنة الإلهية في اتجاهها الذي لا يحيد : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] ، فهي القوة والاستقامة والتصميم »[1] اهـ.

---

(١) في ظلال القرآن ، عند الآيات ٥٤ ـ ٥٦ من سورة هود .

وبعد هذه النقولات لنستمع إلى ما يقوله الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن أثر العبودية الخالصة والتوكل الصادق في طرد الخوف والهلع وجلب الشجاعة والثبات والإقدام ، فيقول رحمه الله تعالى :

« ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك ، فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك ، وإنما امتحن يقينك وصبرك ، وأعظم الأعوان لك على هذا بعد عون الله التجرد من الطمع والفزع ، فمتى تجردت منها هان عليك التحيز إلى الله ورسوله ، وكنت دائماً في الجانب الذي فيه الله ورسوله ، ومتى قام بك الطمع والفزع فلا تطمع في هذا الأمر ، ولا تحدث نفسك به ، فإن قلت : فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفزع ؟ قلت : بالتوحيد والتوكل والثقة بالله وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، وأن الأمر كله لله ، ليس لأحد مع الله شيء»[1] اهـ.

أما عن أثر العبادة والاستعانة في الثبات والسكينة وتحمل الشدائد ورد كيد الأعداء وشرورهم ، فهذا أمر قد تكفل الله سبحانه به لمن صحت عبادته وصدق توكله وفوض أمره إلى مولاه سبحانه .

ولما كانت العبادة لا تقوم ولا تقبل إلا بالإخلاص لله عز وجل ، والمتابعة للرسول ﷺ ، فإنه يمكننا القول بأن الثبات والطمأنينة وقوة العزيمة وإبطال كيد الكائدين لابد له من أمور ثلاثة :

---

(١) الفوائد ص ١١٦ .

١ ـ إخلاص الأمر لله عز وجل .

٢ ـ أن يكون العمل حقّاً مشروعاً متبعاً فيه الرسول ﷺ .

٣ ـ الاستعانة بالله عز وجل في ذلك والتوكل عليه والتبرؤ من الحول والقوة ، والخلوص من العجب والكبر ، والحذر من الاغترار بالنفس والأتباع .

وبالتأمل في الأمر الأول والثاني نجدهما يمثلان حقيقة العبودية لله سبحانه ، بينما الأمر الثالث يمثل الاستعانة بالله عز وجل ، فآل الأمر إلى قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وعن هذا الأثر العظيم للعبادة والاستعانة يحدثنا الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، فيقول :

« إذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً ، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء ، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها ، وجعل له فرجاً ومخرجاً ، وإنما يُؤتى العبدُ من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة ، أو في اثنين منها ، أو في واحد ، فمن كان قيامه في باطل لم يُنصر ، وإن نُصر نصراً عارضاً فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول ، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله وإنما قام لطلب المَحْمَدة والشكور والجزاء من الخلق ، أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً والقيام في الحق وسيلة إليه ـ فهذا لم تضمن له النصرة ، فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله ، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه ، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين ، وإن نُصر بحسب ما معه من الحق فإن الله لا ينصر إلا الحق ، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل ، فبحسب ما

معهم من الصبر .

والصبر منصور أبداً ، فإن كان صاحبه محقّاً كان منصوراً له العاقبة ، وإن كان مُبطلاً لم يكن له عاقبة ، وإذا قام العبد في الحق لله ، ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه ، بريّاً من الحول والقوة إلا به ـ فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك .

ونكتة المسألة : أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة ، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زُمر الأعداء»[1] اهـ.

ويقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« صدق الاستعانة بالله يورث طمأنينة القلب ، وسكون النفس ؛ لأن ذلك من آثار صدق الإيمان وقوته ، وإذا اطمأن قلب الإنسان وسكنت نفسه حصل له برد الراحة ، وحلاوة اليقين ، وسلم قلبه مما ينتاب قلب غيره من الخطرات الفاسدة أو المفزعة أو المخذلة ، فكان يستقبل الأهوال بشجاعة وثبات ، لا يبالي بالخطوب إذا اعتدت ، ولا يلويه شيطان الهوى والشهوات عن الإقدام على الأهوال ، أو الثبات على الخطوب ؛ لاستمداده العون من ربه الذي صدق معه في ضراعته باستعانته ، فهو يرى نفسه موصولاً من الله بالمدد الروحي والمعنوي ، ويؤمن بأن الله يفتح له كل مغلق ، فلا يعتوره اليأس ، أو يتسرب إليه الجزع ، ولا يصيبه شيء من الضعف أو الحيرة ؛ لأنه في كنف الله وعزته ونوره ، فهو من أهل هذه الآية : ﴿ ذَلِكَ

(١) أعلام الموقعين (٢/ ١٧٨) .

بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] »[١] اهـ.

ويقول أيضاً : « في حصر الاستعانة بالله قوة معنوية تكسب العابد لله رباطة جأش وعظيم صراحة وجرأة ، فلا يداهن ولا يتصنع للناس في أي حال من الأحوال ، بل يصدع بعقيدته ويجهر بدينه بحدود ما فرض الله دون الخروج إلى حد التهور ،أو يخرجه من المقابلة بالحكمة إلى نقمة الهجوم ومرارة التحدي الذي يحل به الفساد بدل الإصلاح»[٢] اهـ.

٦ ـ انتفاء الرياء والعجب والكبر :

إن من ثمار العبودية التامة لله عزوجل والاستعانة به وحده سبحانه أن يتخلص القلب من هذا الثالوث الفتاك ، الذي يمرض القلوب ، بل يميتها إن لم يتدارك العبد نفسه ، ويعالجها بصدق التعبد لله عز وجل وإظهار الفاقة والافتقار إليه سبحانه ، فيستعين به ويتوكل عليه ، ويرى أن الحمد كله لله ، والفضل بيده وحده ، وأن لا قدرة ولا حول ولا هداية ولا عافية إلا منه سبحانه ، لا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولايذهب بالسيئات إلا هو سبحانه وتعالى .

وإذا أراد العبد وجه الله عزوجل في جميع أعماله انتفى الرياء من القلب ، وإذا أيقن العبد بضعفه وافتقاره لربه سبحانه وأنه ضعيف هالك إن لم يعنه ربه سبحانه ويوفقه ، فإن ذلك ينفي العجب ، ويورث التواضع والإخبات للحق ، كما يورث التواضع للخلق ، وأن ليس له فضل على نفسه ولا على أحد ، وأن الفضل كله لله ، والخير كله بيده سبحانه فهو المان به وحده .

---

(١) صفوة المفاهيم (١/ ١٥٧) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٩٠).

إن هذا الشعور حينما يسيطر على القلب فإنه لا مكان للعجب ولا للكبر فيه ، وإنما يحل مكان ذلك الإخبات والخضوع لله عز وجل ، مع التواضع للحق والخلق ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« وكثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب ، فالرياء من باب الإشراك بالخلق ، والعجب من باب الإشراك بالنفس ، وهذا حال المستكبر ، فالمرائي لا يحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والمعجب لا يحقق قوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فمن حقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ خرج عن الرياء ، ومن حقق قوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ خرج عن الإعجاب ، وفي الحديث المعروف : « **ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه** »[1] »[2] .

ويقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« عبودية الله تستلزم الإخبات له ، فالعابد لله يكون مخبتاً له ، والإخبات الاطمئنان ، فهو النزول بالنفس عن الكبرياء والغطرسة ، بأن تُستذل لله وحده ، وترى فقرها وحاجتها إليه ملازمين لها ، ويسمى المكان المطمئن في اللغة « خبتاً » ، والإخبات لله هو الذل والاطمئنان عند ذكره خوفاً ووجلاً »[3] اهـ .

وقد ذكر الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى كلاماً جيداً عن آفة العجب ، وبم يتخلص منها ، أقتطف منها حديثه عن العُجب بالنفس والعقل والفطنة ؛

---

(١) أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٣) ، والبيهقي في الشعب (٧٢٥٢) وغيرهما ، وله طرق أخرى هو بمجموعها حسن ، انظر السلسلة الصحيحة (١٨٠٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧٧) .

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ١١٢) .

حيث يقول :

« قلت : فالعجب بالعقل والذهن والفطنة ؟ قال : استحسان ذلك واستعظامه ، ونسيان النعمة بالتفضُّل به ، والاتكال عليه أن يدرك به ما يريد وما يؤمل ، من علم أو رأي ، أو أحكام دين الله عز وجل ، أو دنيا ، وترك التوكل على الله عز وجل في جميع ذلك ، حتى يخرجه ذلك إلى قلة التثبت لإعجابه بعقله ، حتى يخطئ في دين الله عز وجل ، ويقول عليه بغير الحق ، ويخرجه أيضاً إلى ترك التفهم ممّن علّمه أو أمره أو ناظره ، حتى يحرم الفهم للحق ، ويأبى إلا القول بالخطأ والغلط ، ويخرجه إلى حقرية [١] من دونه ، ممَّن لم يُعطَ من الفطنة مثل ما أعطي ، وإن كان أورع منه وأفضل عملاً ، حتى يُسمي كثيراً ممن هو أورع منه وأفضل منه جهالاً حمقى ، ويراهم كالحمير التي لا تعقل ؛ إذ فضل عليهم بالفطنة والذهن ، ويستطيل عليهم ، ويرى ألا قدْر لهم ، ويستصغر ما عملوا من خير ، ويرى أنه خير منه ، وإن ضيّع العمل لفطنته ولعقله .

قلت : فبمَ ينفي ذلك ؟

قال : بمعرفته بجهله مهما أعطي من الفطنة ، وبسهوه وغفلته وقلّة ما يدري بعقله ، وإن كان قد أعطي من الفطنة أكثر مما أعطي غيره ، فقد وجب عليه في ذلك الشكر ، وإنما فُضِّل بالذهن لتعظم الحجة عليه ، ولتوكيد الطاعة باللزوم لها ، ولينظر الله عز وجل كيف استعماله لعقله في الفهم عنه ، والاشتغال به ، وأن ما أعطي من العقل بيد الله عز وجل ، [و] لو شاء أن يغيّره ويزيله ببعض الآفات ، كما رآه فَعَل ذلك بمن هو مثله ومن هو فوقه

(١) كذا : ولعلها : حقره .

لفعل ، فلا يأمن من أن يسلبه الله عز وجل عقله .

فإذا عرف ضعفه وجهله وقلة ما يدرك بعقله ، وأن ما فُضّل به منّة منه ، عليه فيه الشكر وعظيم الحجة ، ووجوب الحق ، وأنه لذلك مضيع ، فإذا عرف ذلك علم أن من لم يؤت من الفطنة مثل ما أوتي أحسنُ حالاً منه ؛ إذ لم يشكر الله عز وجل على ما فضله به عليه ، وأن الحجة عليه أعظم منها على من دونه .

وقد يرى كثيراً ممَّن هو دونه في الفطنة أطوع لله تعالى منه ، وأنه مع ذلك لا يأمن أن يسلبه الله تعالى عقله إن ضيع القيام لله تعالى به فيما وجب عليه من الفهم عنه ، والعقل عنه والعمل به .

فإذا ألزم قلبه هذه المعرفة زال عنه العجب ، وخاف عظيم الحجة ، وواجب الحق ، واهتم بالشكر وأداء الحق »[1] .

٧ ـ تفريج الكربات والسلامة من مضلات الفتن :

لقد مر بنا في الثمرة الخامسة أثر العبادة وصدق التوكل والاستعانة به سبحانه على شجاعة القلب والثبات وعدم الاكتراث بالباطل وأهله ، وهذه الثمرة فرع عن تلك ؛ حيث إن الصادق في عبادته وتوجهه لربه والصادق في توكله واستعانته بمولاه سبحانه يصبح محفوظاً من الله عز وجل معصوماً من الفتن وشرورها ، وإن مرت به كربة ثبته الله وصبره عليها ، وسرعان ما تنكشف وتنفرج عن خير وعاقبة حسنة له ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ [الطلاق: ٢ ، ٣] .

---

(١) الرعاية للحارث المحاسبي ص٣٦٠ ، ٣٦١.

وقال سبحانه عن نبيه ﷺ وصحابته الأجلاء : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤].

وهذا الفضل من الله سبحانه عليهم كان بصدق توكلهم عليه سبحانه وإخلاصهم العبادة له . ويعلق شيخ الإسلام رحمه الله تعالى على آية الطلاق السابقة فيقول :

« قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] ، قد روي عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم »[1]، وقوله : ﴿ مَخْرَجًا ﴾ عن بعض السلف : أي من كل ما ضاق على الناس ، وهذه الآية مطابقة لقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الجامعة لعلم الكتب الإلهية كلها ، وذلك أن التقوى هي العبادة المأمور بها ، فإن تقوى الله وعبادته وطاعته : أسماء متقاربة متكافئة متلازمة ، والتوكل عليه هو الاستعانة به ، فمن يتقي الله مثال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، ومن يتوكل على الله مثال : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كما قال : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وقال : ﴿ عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ [الممتحنة : ٤] ، وقال : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[الممتحنة : ٤].

ثم جعل للتقوى فائدتين : أن يجعل له مخرجاً ، وأن يرزقه من حيث لا يحتسب ، والمخرج هو موضع الخروج وهو الخروج ، وإنما يطلب الخروج

(١) أحمد (٥/ ١٧٨)، والحاكم (٢/ ٤٩٢) وفيه انقطاع .

من الضيق والشدة ، وهذا هو الفرج والنصر والرزق، فبين أن فيها النصر والرزق ، كما قال : ﴿ **الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « **وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ بدعائهم ، وصلاتهم ، واستغفارهم** »[1] هذا لجلب المنفعة، وهذا لدفع المضرة .

وأما التوكل فبين أن الله حسبه أي كافيه ، وفي هذا بيان التوكل على الله من حيث إن الله يكفي المتوكل عليه ، كما قال : ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ ؟ خلافاً لمن قال : « ليس في التوكل إلاالتفويض والرضا »[2] اهـ.

ومن ذلك قوله ﷺ : « **من قال : بسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقال له حينئذ : كفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان** »[3] .

وقد ذكر أبو نعيم رحمه الله تعالى في كتابه (حلية الأولياء) قصة تدل على على أثر العبادة الخالصة والتوكل الصادق في تفريج الكربات والسلامة من مضلات الفتن ؛ حيث ساق بسنده إلى عون بن عبد الله قال :

« عن عون بن عبد الله بن عتبة ، قال : بينا رجل بمصر في بستان زمن فتنة آل الزبير ، جالساً كئيباً حزيناً يبكي ينكث في الأرض بشيء معه ، فرفع رأسه ، فإذا صاحب مسحاة قد مثل له ، فقال : مالي أراك مهموماً حزيناً ؟ فكأنه ازدراه ، فقال : لا شيء ، فقال : أبالدنيا ؟ فإن الدنيا عرض حاضر ، يأكل منها البر والفاجر ، وإن الآخرة أجل صادق ، يحكم فيها ملك قادر ، يفصل بين الحق والباطل ، حتى ذكر أن لها مفاصل كمفاصل

---

(١) البخاري مختصراً في الجهاد (٢٨٩٦) ، وبنحوه في النسائي (٦/ ٤٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٥، ٥٦).

(٣) تقدم تخريجه ص٣٤٧ .

اللحم من أخطأ منها شيئاً أخطأ الحق. قال : فأعجب بذلك من كلامه ، فقال : اهتمامي بما فيه المسلمون . فقال : إن الله سينجيك بشفقتك على المسلمين، وسل ! من ذا الذي سأل الله فلم يعطه ، أو دعا الله فلم يجبه، أو توكل عليه فلم يكفه ، أو وثق به فلم ينجه ؟ قال : فعلقت الدعاء، فقلت : اللهم سلمني وسلم مني ، قال : فتجلت الفتنة ولم تصب منه شيئاً»[1] .

٨ ـ الرضا بقضاء الله عز وجل والتسليم لأحكامه وتفويض الأمور إليه :

وهذا من أعظم ثمار العبادة الصادقة والتوكل الصحيح ، وإلا فما قيمة عبادة وتوكل واستعانة لا تثمر الرضا والتسليم والتفويض ؟

ولا يعني الرضا والتسليم ترك فعل الأسباب ومدافعة أقدار الله عز وجل بأقداره، وإنما تفعل الأسباب المأذون بها مع عدم التعلق بها، ثم إن لم ينفع الله عز وجل بها من جلب النفع أو دفع الضر ، فإن المتعيّن حينئذ الرضا والتسليم وحسن الظن بالله عز وجل ، وأن اختياره سبحانه لعبده المؤمن أحسن من اختيار العبد لنفسه ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

وعن هذه الثمرة الجليلة يتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول :

« التفويض : هو روح التوكل ولُبُّهُ وحقيقته ، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله ، وإنزالها به طلباً واختياراً ، لا كرهاً واضطراراً ، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه ،العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته ، وحسن ولايته له ، وتدبيره له .

فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوليه

---

(١) حلية الأولياء(٤/ ٢٤٤) ط. دار الكتاب العربي .

لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها ، فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كُلَفها وثقل حملها ، مع عجزه عنها ، وجهله بوجوه المصالح فيها ، وعلمه بكمال علم من فوض إليه، وقدرته وشفقته .

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى درجة «الرضا» وهي ثمرة التوكل، ومن فسر التوكل بها ، فإنما فسره بأجلّ ثمراته ، وأعظم فوائده ، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله .

وكان شيخنا رضي الله عنه يقول : المقدور يكتنفه أمران : التوكل قبله ، والرضا بعده ، فمن توكل على الله قبل الفعل ، ورضي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية ، أو معنى هذا .

قلت : وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: « **اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم** »[1] ، فهذا توكل وتفويض ، ثم قال : « **فإنك تعلم ولا أعلم ، وتقدر ولا أقدر ، أنت علام الغيوب** »[1].

فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة ، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون . ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً ، أو آجلاً ، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً . فهذا هو حاجته التي سألها ، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له ، فقال : « **واقْدُرْ لي الخير حيث كان ، ثم رَضِّني به** »[1].

---

(١) البخاري / ك التهجد من حديث جابر (١١٦٦) وفي الدعوات (٦٣٨٢) وفي التوحيد (٧٣٩٠).

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية ، والحقائق الإيمانية ، التي من جملتها : التوكل والتفويض ، قبل وقوع المقدور ، والرضا بعده ، وهو ثمرة التوكل ، والتفويض علامة صحته ، فإن لم يرض بما قضي له ، فتفويضه معلول فاسد »[1] اهـ.

وهذه الثمرة تعد من أعظم أسباب النجاة من اليأس والقنوط ، وتحصيل أضدادها .

٩ ـ موالاة أولياء الله سبحانه والبراءة من الشرك وأهله :

لما كانت العبادة قائمة على تمام الحب مع تمام الذل لله عز وجل، فإنه يمتنع تماماً الجمع بين محبته سبحانه ومحبة ما يبغضه من الشرك وأهله أو كراهية ما يحبه ويرضاه ، وهذا أمر مركوز في الفطر ؛ حيث إن المحبة الصادقة لإنسان ما تعني محبة ما يحب وكراهة ما يكره ،وإلا كانت المحبة مدخولة ، فإذا كان هذا يمتنع مع المخلوقين ، فكيف به مع الخالق عز وجل؟

يقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« عبودية الله لا تسمح للعابد بموالاة أي عدو لله ولو كان أقرب قريب ، فضلاً عن موالاة المحادين لله ورسوله، من دول الكفر أو معتنقي المبادئ الإلحادية باسم التقدم في الحضارة أو الاقتصاد ، فكل من يلقي إليهم بالمودة أو يتفق معهم في ثقافتهم أو تشريعاتهم فهو خارج من عبودية الله إلى عبودية الطاغوت .

عبودية الله تقضي على أهلها ببغض الذين شرعوا ما لم يأذن به الله في

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٢، ١٢٣).

سائر النواحي ، ممن يترسم خطط الملاحدة والمستعمرين ، ولا يلتفت إلى هدي الله ورسوله . وكذلك بغض من يعتقد أو يدعو لحصر الدين في نفوس المؤمنين كأفراد دون تدخله في مشاكل الحياة من حرب وسلم وتحرر واستعمار .

فبغض هؤلاء من لوازم عبودية رب العالمين ، ومنابذتهم وهتك أستارهم وكشف حقيقتهم للناس من الجهاد في سبيل الله ، أما موالاتهم وتحبيذ أفعالهم فهي محادة لله ورسوله ، صاحبها متجرد من ولاء الله ورسوله ، غير محقق للأمر »[1] اهـ.

ويقول أيضاً رحمه الله تعالى :

« عباد الله لا يتجردون من ولاء الله ورسوله وموالاة أوليائهما السالكين هديهما ، بل يتجردون من ولاء من سلك غير هديهما في نواحي الحكم والحياة ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، مما تمليه المذاهب والمبادئ العصرية التي ركزها أعداء الله ورسله من أئمة الكفر وطواغيت البشر ؛ لأن الموالي لهؤلاء والمحبذ لأفكارهم ليس من الله في شيء ، فموالاة الله تستلزم التجرد من ولاء المتبعين غير سبيله ، كما أن موالاتهم والسير في ركابهم يستلزم التجرد من ولاء الله ورسله وأوليائه ، والخروج من عبوديته الشرعية »[2] اهـ.

١٠ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله سبحانه :

العابد لربه حقاً لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال وهو يرى المنحرفين عن

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٦٢ ، ٦٣) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٧٣).

عبادة الله جل وعلا ، بل ينطلق في دعوتهم إلى الخير انطلاق المشفق الرحيم الخائف عليهم من عذاب الله عز وجل ، مبتدئاً بالأقربين من الأهل والأولاد، كما لا يقر له قرار وهو يرى ما يبغض مولاه ومعبوده سبحانه من الشرك أو المعاصي ، وإنما يسعى جاهداً لإزالة ذلك بمجاهدة أهل الشرك والعصيان بالحجة والبيان ثم بالقوة والسنان إذا اقتضى الأمر ذلك ، وكان هو المحبوب والمرضي لله عز وجل في وقته ، ويتحمل في مرضات ربه عز وجل كل الأذى والتضحيات بل وبذل النفس في سبيل معبوده ومحبوبه ومولاه ، وهذا هو العابد لربه حقّاً والمتوكل عليه صدقاً ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

« والجهاد : هو بذل الوسع ـ وهو كل ما يملك من القدرة ـ في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه الحق ، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد ، كان تركه دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه .

ومعلوم أن المحبوبات لاتنال غالباً إلا باحتمال المكروهات ، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة ، فالمحبون للمال والرئاسة والصور ، لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا ، مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة ، فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى من تحمل المحبين لغير الله ما يحتملون في سبيل حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبته لله ؛ إذ كان ما يسلكه أولئك في نظرهم ،هو الطريق الذي يسير به العقل .

ومن المعلوم أن المؤمن أشد حبّاً لله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن

﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] »[١] اهـ.

ويقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« العابد لله يجند نفسه لمقاومة كل ثورة على الإسلام وتعاليمه وحَمَلته المخلصين ، مهما اتسمت هذه الثورة بأي اسم قومي أو وطني أو اشتراكي وما إلى ذلك ، ويعاهد ربه بتكريس جميع قواه لدحض المفترين عليه ، المفتاتين على شريعته ؛ حتى يقمعهم ويفضح باطلهم ، ويكون جريئاً مقداماً لا يخرسه خوف بأسهم ولا رجاء مودتهم ولا حب الحياة بمكان يهان فيه شرع الله وتهتك حرماته ؛ لأنه إن لم يتصف بذلك ونكص عن مجابهة أولئك كان جرمه أشد من جرم المتولي يوم الزحف ، فكان غير محقق لعبودية الرحمن ؛ لأن الغزو الثقافي والصراع الفكري أشد خطراً من الغزو العسكري ، وأسوأ غلبة في التأثير ؛ إذ فيه تسميم العقول وإذابة للأرواح ، وإذا كان قاتل الجسم يُقتل قصاصاً وتتخذ وسائل الدفاع لاتقاء شره ، فقاتل الأرواح ينبغي الاستعداد له والعمل على قمعه أزود من ذلك بكثير »[٢] اهـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« إن التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ؛ ليعبد الله وحده في الأرض ، وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام ، ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان . .

إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليبذل مثلها

---

(١) العبودية ص ٤٤ .

(٢) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٧٦) .

وأكثر من يدينون لغير الله ، والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله ، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد ، وفوقها الأخلاق والأعراض . .

إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله ، وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار ! »[1] اهـ.

١١ ـ وضوح الهدف ونبل الغاية وتوحيد الهمِّ والسعادة بذلك :

إن المحقق لمدلول قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يصبح هدفه في هذه الحياة واضحاً ومحدداً وغايته نبيلة وشريفة ، كيف لا والغاية له في هذه الحياة أن يعبد الله عز وجل ويتقرب إليه في عمره المحدود ، ثم ينقلب إلى ربه سبحانه ليعيش هناك في الآخرة الأبدية السرمدية في رضوانه سبحانه وجنته ، وأنه إذا تحددت هذه الغاية النبيلة يصير العبد واضح الهدف محدد الغاية ؛ حيث يوجه همه كله لتحقيق هذه الغاية ، ويخضع كل شيء في هذه الدنيا لخدمة هذه الغاية العظيمة ، وبذلك يتوحد الهم في وجهة واحدة لا ثاني لها ، ألا وهي تحقيق العبودية لله سبحانه ، والاستعانة به عز وجل في تحقيقها والقيام بها على أحسن وجه .

وإن العبد بتوحيد همه في عبادة الله وحده يسلم من الصراع والتشتت وكثرة الهموم والأفكار ؛ لأن من تعلق قلبه بجهات عدة يسعى لخدمتها

---

(١) في ظلال القرآن ، ط. الشروق (٣/ ١٩٤١).

وإرضائها، يحبها ويذل لها ، إنه بهذا الصنيع يعيش مشوش النفس ، مضطرب الغاية ، غامض الهدف .

وقد ضرب الله سبحانه في كتابه الكريم مثلاً للموحد الذي أسلم وجهه لله وحده ، وللمشرك الذي وجه وجهه لعدة شركاء ، ليسوا متفقين ، وإنما هم متشاكسون لا يدري المشرك من يرضي فيهم ، هذا وإن كان المثال في المشرك بالله الشرك الأكبر ، لكنه يُستأنس به فيما دون ذلك من صور التعلق بغير الله سبحانه ، يقول الله عز وجل : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

[الزمر : ٢٩]

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد ، فقال : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً** ﴾ أي : عبداً ﴿ **فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ** ﴾ فهم كثيرون ، وليسوا متفقين على أمر من الأمور ، وحالة من الحالات ، حتى تمكن راحته ، بل هم متشاكسون متنازعون فيه ، كل له مطلب ، يريد تنفيذه ، ويريد الآخر غيره ، فما تظن حال هذا الرجل ، مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿ **وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ** ﴾ أي : خالصاً له ، قد عرف مقصود سيده ، وحصلت له الراحة التامة .

﴿ **هَلْ يَسْتَوِيَانِ** ﴾ أي : هذان الرجلان ﴿ **مَثَلاً** ﴾ ؟ لا يستويان . كذلك المشرك ، فيه شركاء متشاكسون ، يدعو هذا، ثم يدعو هذا ، فتراه لا يستقر له قرار ، ولا يطمئن قلبه في موضع ، والموحد مخلص لربه ، قد خلصه الله

من الشركة لغيره ، فهو في أتم راحة ، وأكمل طمأنينة »[١] .

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذا المثل الذي ضربه الله سبحانه للموحد والمشرك ، فيقول :

« وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال ، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى لأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق ، ومصدراً واحداً للنفع والضر ، ومصدراً واحداً للمنح والمنع ؛ فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد ، يستمد منه وحده ، ويعلق يديه بحبل واحد يشد عروته ، ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره ، ويخدم سيداً واحداً يعرف ماذا يرضيه فيفعله ، وماذا يغضبه فيتقيه . . وبذلك تتجمع طاقته وتتوحد ، فينتج بكل طاقته وجهده ، وهو ثابت القدمين على الأرض ، متطلع إلى إله واحد في السماء ، ويعقب على هذا المثل الناطق الموحي ، بالحمد لله الذي اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة»[٢] اهـ.

وإذا وجه العبد حياته كلها لتحقيق هذا الهدف العظيم ، ألا وهو عبادة الله وحده ، فإنه يخضع كل شيء في حياته لهذا الهدف ، وإنه بذلك يحفظ وقته وعمره من أن يضيع في غير هذه الغاية فيشح بوقته النفيس وأنفاسه المعدودة من أن تضيع سدى ، بل يشغل جميع أوقاته ودقائق عمره فيما يعود عليه بالنفع في آخرته من عمل صالح ، أو دعوة إلى الله أو جهاد في سبيله ،

(١) تفسير السعدي ، عند الآية ٢٩ من سورة الزمر .
(٢) في ظلال القرآن ، عند الآية ٢٩ من سورة الزمر .

ويتحسر على فوات الدقائق من عمره أعظم من تحسره على فوات الدنيا بأسرها ؛ولذلك فهو يغتنم ويهتبل نعمة الفراغ والصحة والمال والشباب باستعمالها في طاعة الله عز وجل قبل فواتها ، وحتى أوقات راحته واستجمامه ومتعته ينويها عبادة لله عز وجل ليتقوى بها على طاعة أخرى بعد إجمام النفس ونشاطها .

كما ينتج من وضوح الغاية وارتباط القلب بها دون غيرها انضباط واتزان في حياة العبد وشخصيته فلا تضطرب موازينه في الحياة ولا يختل سلوكه، ولا تنحرف مواقفه وأحكامه على الأمور ، ذلك لأنه ينطلق في ذلك كله من الغاية العظمى التي من أجلها خلق الله سبحانه الجن والإنس ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وأضرب مثالين اثنين يظهر فيهما أثر العبادة، وأثر ارتباط العبد في القيام بهما بالغاية العظمى والهدف الأسمى.

المثال الأول : الدراسة وطلب العلم :

عندما يضع الدارس وطالب العلم بين عينيه عبادة الله عز وجل وتذكره دائماً أنه عبد لله سبحانه لا ينفك عن هذه العبودية لحظة واحدة ، فإنه بذلك ينطلق في أخذه للعلم انطلاق العابد لربه المخلص لمولاه عز وجل، ينوي بعلمه أن يتبصر في دينه حتى يعبد الله على بصيرة وحتى يدعو إلى الله على بصيرة؛ ولذا فهو يقبل على العلوم النافعة من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، ويعرض عما سوى ذلك من المناهج الضالة المضلة .

وما إن تختفي هذه الغاية العظيمة أو يغفل عنها طالب العلم في طلبه

حتى تختل النيات وتتلوث المقاصد ، كما هو الحاصل اليوم عند أكثر الدارسين في المدارس والمعاهد والجامعات ؛ حيث سيطرت الدنيا على أهداف التعليم فصارت الشهادة مقصودة لذاتها ، وأصبح المنصب والمعاش هو المسيطر على ذهن الدارس وذهن أهله ومربيه ، وبذلك قلّت بركة التعليم في هذه الأزمنة إلا من رحم الله عز وجل ، وصرنا نجد من يمضي في دراسته أكثر من عشرين سنة ، ولم يجمع فيها من العلم إلا نتفاً متفرقة .

ثم إن هذه الحصيلة القليلة من العلم لا تظهر آثارها العملية على صاحبها ، فقل العلم والعمل ، وكل ذلك كان بالغفلة عن الغاية العظمى التي خلقنا من أجلها ، وعدم ربط حياتنا كلها بها .

المثال الثاني : الدعوة إلى الله :

والدعوة إلى الله عبادة متى ما توفر فيها شرطا العبادة : (الإخلاص والمتابعة) فإن الله سبحانه يقبلها ويثيب عليها وينفع الناس بها ، وتستقيم أحوالهم ؛ لأن الداعية يتحرك في دعوته مشدوداً إلى غايته العظمى ألا وهي التعبد لله سبحانه بهذه الدعوة ، فلا تراه إلا سليم القلب ، يحب للناس الخير ، يجمع ولا يفرق ، ينطلق منطلق الناصح المشفق الخائف على نفسه وعليهم من عذاب الله ، يريد الأجر من الله وحده ، ويريد الثواب والخير لمن يدعوهم .

ولكن عندما يغفل الداعية أنه في دعوته عبد لله عز وجل ، يتعبد له سبحانه بالإخلاص والمتابعة لرسوله ﷺ ، فمن هنا يبدأ الخلل وتظهر صور من الانحرافات والمواقف الخاطئة ، كما هو الحاصل اليوم ؛ من الحزبيات المقيتة ، والتعصب المذموم ، والتحاسد والتباغض والتشاحن الموجود في

صفوف بعض الدعاة والمنتسبين إلى الدعوة ، وكما هو حاصل اليوم من تلك الفُرقة المشينة ، والتي ليس لها ما يبررها من الشرع أو العقل، ولكن تلوث القلوب والغفلة عن هدف الداعية في دعوته وأنه عبد لله عز وجل يسعى لمرضاته ويريد جنته .

إن نسيان هذه الأمور العظيمة هو من أعظم الأسباب التي أفرزت هذه الأمراض الفتاكة اليوم بين الدعاة وطلبة العلم، أسأل الله عز وجل أن يطهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة؛ إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

[الحشر: ١٠]

١٢ ـ النظرة الصحيحة للدنيا والآخرة :

عندما يتضح للعبد هدفه في هذه الحياة وأنه ما جاء إلى الدنيا إلا ليعبد الله عز وجل في عمره المحدود ، ثم ينقلب إلى ربه سبحانه ليجازيه على عمله، وأنه لا طاقة ولا حول ولا قوة له في القيام بذلك إلا بعون الله وتوفيقه .

إذا اتضحت له هذه الغاية ، فإن هذا سينعكس على نظرته الصحيحة لحقيقة الدنيا والآخرة ، وسيسلم من ذلك الفصام النكد بين الدنيا والآخرة ، والذي ما نشأ إلا من فساد في التصور لمفهوم العبادة في الإسلام ، فقد صرنا نرى من يعتزل الحياة ويترك عمارتها وإصلاحها ، ويترك الفساد يدب فيها، كل ذلك بحجة الزهد والإقبال على الآخرة ، وتهذيب النفس وتزكيتها .

وفي مقابل هذا الانحراف نشأ انحراف آخر ؛ ألا وهو الانشغال بالدنيا وزخرفها حتى آل ذلك إلى نسيان الآخرة والاستعداد لها .

أما العابد لله عز وجل على بصيرة فإن الله سبحانه يسلمه من هذه الانحرافات والشطحات ، فينطلق في هذه الدنيا ناظراً إليها على أنها مزرعة الآخرة ، وأنها متاع قليل سريع الزوال ؛ فيسعى فيها للتزود منها للدار الآخرة والتي هي دار القرار ، وفيها السعادة الحقيقية أو الشقاء الحقيقي .

ولذلك فإن من يحمل هذه النظرة الصحيحة ، لا يغتر بالدنيا ، بل يحذر منها ومن زينتها ، وفي نفس الوقت لا يعتزلها ولا يتركها تأسن وتفسد بحجة الزهد والعزلة عن الفساد ، بل يبذل قصارى جهده في إصلاحها ومحاربة الفساد فيها ، ودعوة الناس إلى عبادة الله عز وجل ، وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا ، وحثهم على العمل في عمارة الأرض وإصلاحها ، وتسخير ما يفتحه الله عز وجل من أمور الدنيا في عبادة الله سبحانه ، والتزود منها لدار البقاء والدوام .

يقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« عباد الله لا يستحبون الدنيا على الآخرة، فذلك من صفات الكافرين، بل يعتبرونها مزرعة للآخرة ، فيبذلون أقصى مجهودهم بجلائل الأعمال، والمسابقة إلى الخيرات ، وإصلاح الدنيا على وفق شرع الله، فسيرهم فيها وسطٌ بلا إفراط ولا تفريط ، لم يجعلوها أكبر همهم ، ولم يتعلقوا بالمادة هذا التعلق المشين ، ولم يسلكوا الزهد الهندي الذي لم يشرعه الله ، فيعيشوا في بؤس وذلة ، ويضيعوا حق الله مما تقدم ذكره ، وما سيأتي له مزيد .

فإنه بسبب هذا الزهد المذموم ، وما قذف به على الشرق من خرافات حصل تفريط كبير في نواحي الحياة ، فأطاحت بحرية أهله ؛ حيث ماتت فكرة الجهاد وما يستلزمه من إعداد القوة ، فمسخوا دين العزة والفتح

والكرامة إلى دروشة وخنوع لكل مستعبد ، وتفريط في جنب الله ضاعت معه جميع المقومات »[١] اهـ.

ويقول في موطن آخر :

« إن عبودية الله تجعل المرء دائماً يتذكر الآخرة ولا يذهل عنها لحظة ليعد لها عدتها كيلا يقسو قلبه ويرضى بالحياة الدنيا ويطمئن إليها ، فلا يقوم بحقوق الخالق والمخلوق التي تتطلبها العبودية الشرعية. وليس معنى ذلك الانعزال عن خوض معركة الحياة والقنوع بالفقر والذلة مع التقاعس عن جلائل الأعمال ، بل تحفزه قوة شعوره بأهوال الآخرة للقيام بما أوجب الله عليه وربط به مصيره ، فيكون في هذه الدنيا من خيرة العاملين لإعلاء كلمة الله ، والإصلاح في أرضه ، ومنفعة خلقه ، ورفعة شرعه على كل تشريع »[٢] اهـ.

١٣ ـ الأمن والعدل والاستقرار في المجتمعات :

يقول الله عز وجل : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الأنعام: ٨٢] ، ويقول تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢] .

في الآيتين السابقتين أوضح دليل على أن الأمن والاستقرار والطمأنينة في العباد والبلاد ليس لها طريق إلا تحقيق عبودية الله عز وجل ، والبراءة من

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٧٣) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٨٠).

الشرك ، وتحكيم شرعه المبرأ من كل نقص وعيب وظلم وجهل ، وبدون ذلك ينتفي الأمن والعدل والاستقرار ، ويحل الخوف والجوع والظلم والاستبداد ، وإن هذه المسألة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى مزيد تفصيل، فما فوق كلام الله سبحانه كلام ، ومن أصدق من الله حديثاً .

والتجارب الطويلة في تاريخ الأمم تشهد بذلك ، فما من أمة وحدت ربها ، وحكمت شرعه وتحاكمت إليه، وحفظت عهده ، ولم تتعد حدوده إلا وذاقت رغد العيش ، وعاشت آمنة مطمئنة في دمائها وعقولها وأعراضها وأموالها ، وفوق ذلك دينها وعقيدتها ، والعكس من ذلك فيمن عتا من الأمم عن أمر ربه وتمرد على شرعه وعبادته ، وهذه سنة الله عز وجل : ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر: ٤٣] .

يقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« عبودية الله تحقق لأهلها الأمن في الحياة الدنيا وفي الآخرة ؛ لأن جميع حركاتهم وسكناتهم منوطة بمراقبة رب العالمين والوقوف عند حدوده بإعطاء كل ذي حق حقه دون غش ولا بخس ولا مماطلة ، وذلك باتباع ما رسمه الله ورسوله من العدل والإحسان والصدق والوفاء والاحترام المتبادل ؛ حيث قال تعالى : ﴿ **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٥] ، وقال : ﴿ **وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال : ﴿ **وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ [هود: ٨٥] ، وقال : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ** ﴾ [النساء: ١٣٥] »[1] اهـ.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٨٨).

١٤ ـ شهود نعمة الله عز وجل وشكره عليها :

إن قيام العبد بتكاليف العبودية لله عز وجل تقتضي اللهج الدائم بشكره سبحانه والثناء عليه ؛ فلولاه سبحانه ما ثبت على الإيمان ، ولا قام بأداء العبادة ولما قوي عليها ، فمنه سبحانه الإيجاد والإعداد والإمداد والعون .

وإن شهود نعم الله عز وجل التي لا تحصى ، وأعظمها نعمة التعبد له سبحانه ، ثم النعم الأخرى التي سخرها سبحانه للعبد ليقوى بها على العبادة .

إن شهود ذلك كله يقتضي شكره سبحانه في كل حين وآن ، شكراً عملياً ، يتبرأ من كل حول وقوة إلا بالله ، وهذا يدفعه إلى مزيد من العبوديات والقربات إليه سبحانه ، ومزيد من التضرع والدعاء واللجوء إليه عز وجل في طلب العون والتوفيق والتثبيت .

وهذا هو شأن العابدين لله حقاً وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ ؛ حيث كان يقوم في الصلاة حتى تتورم قدماه الشريفتان ، فإذا سئل في ذلك قال : «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[1] .

يقول الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى :

« ويجدد الضراعة الصادقة الخالصة له بـ ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ عازماً عزماً أكيداً على تنفيذ مقتضياتها بكل قوة وتصميم ، ذاكراً للنعمة الكبرى التي ذكره الله بها في الأزل ، وأنعم عليه بها بعد إيجاده ، وهي نعمة الإسلام التي لا تعدلها كل نعمة ، ولا تقوم الدنيا كلها ثمناً لها ، فيزيد حبه

---

(١) البخاري / ك التفسير ـ سورة الفتح (٤٨٣٦) ، ومسلم / ك صفات المنافقين (٢٨١٩) .

لله ، وتعظيمه له ، وذكره إياه ذكراً صحيحاً نافعاً مؤثراً ، ويزداد حبه لرسوله عليه الصلاة والسلام ، الذي جرت هذه النعمة الكبرى على يديه ، وهذا الإنقاذ الحيوي على يده.

هذه النعمة التي رفعته عن مستوى البهائم الخسيسة وأخرجته من الظلمات إلى النور ، وحررته من رق العبودية ، والخضوع لغير الله ، هذه النعمة التي لولا إكرام الله بها لكانت البهائم أحسن منه حالاً ومآلاً ، فيقوم بشكر الله عليها شكراً عملياً يجعله يعض عليها بالنواجذ ، ويكون قوي الشكيمة في حفظها والاستمساك بها ، والدفاع عنها بصولة ليث غاضب ، وبذل النفس والنفيس دونها، وصدق العزيمة في تأدية أركانها وواجباتها . . .

ثم يشهد نعمة الله بتقدير خلقه في أحسن صورة ، وإمداده بالسمع والبصر والفؤاد وسائر الجوارح والأحاسيس والقوى ، وإسباغ نعمه العظيمة عليه ، فلا يغفل عن ذكره أو ينشغل بسواه ، بل يشكر كل نعمة لله شكراً عملياً باستعمالها في طاعته والسعي في مرضاته ، وعدم الغفلة عنه ، فكلما ذكر نعمة الإيجاد ذكر الله الموجد له والذاكر له بها ذكراً صحيحاً ، ذكر المحب لحبيبه ، المتفضل على حبيبه ، وضرع إليه بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ضراعة المخلص الصادق المصمم على معاملة الله بمقتضاها ، والاتجاه إليه قولاً وعملاً وقصداً »[1] اهـ.

١٥ ـ التخلص من رواسب الجاهلية[2] وعاداتها وتقاليدها :

إن من أهم لوازم العبودية لله عز وجل البراءة من أفعال الجاهلية وأخلاق

(١) صفوة المفاهيم والآثار (بتصرف يسير) (١/ ١٧٢ ، ١٧٣).

(٢) لفظة الجاهلية مشتقة من الجهل ، ويُعنى بها الإعراض عن هدي الله سبحانه ، إما جهلاً أو استكباراً ، وهي من الألفاظ المجملة ، فإذا أريد بها الجاهلية المطلقة في الزمان ، فهذه لم =

الجاهلين ، بل إن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام تفرض على العبد المسلم أن يتخلص من كل رواسب الجاهلية وعاداتها ، وألا يتشبه بأهل الجاهلية في شيء من الأقوال والأفعال مهما كان ضغط الواقع وإغراءاته ، بل يتميز بشخصيته الإسلامية الموحِّدة ، والتي تحصر كل تلقيها فيما جاء عن الله سبحانه أو عن رسوله ﷺ .

وللشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى رسالة نفيسة في المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية ؛ يحسن الرجوع إليها .

ويتحدث الشيخ الدوسري رحمه الله تعالى عن هذا اللازم المهم من لوازم العبودية ، فيقول :

« الضارع إلى الله صدقاً بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يتجرد من جميع مؤثرات الجاهلية بكافة أنواعها ، سواء المألوفة عنده في بيئته أو المستوردة عليه ، فينخلع عنها ويتبرأ منها عن بغض وعداء ، مكتفياً بتلقي الهداية في جميع شؤونه من كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ ، والجاهلية ليست رسماً خاصّاً أو صبغة خاصة مقصورة على قرن أو قرون مضت . إنما الجاهلية كل سلوك مخالف لملة إبراهيم وشريعة سيد المرسلين في أي ناحية من نواحي الحياة .

= تكن إلا قبل عهد النبوة ؛ ما كان عليه أهل الجاهلية من الشرك والفساد ، أما بعد النبوة فلا يوجد جاهلية مطلقة في الزمان ؛ لأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله . ولكن توجد جاهليات مقيدة بمكان دون مكان أو شخص دون شخص ، كما يوجد جاهليات مطلقة في بعض بقاع الأرض دون بعض كما هو الحاصل في جاهليات الغرب والشرق الكافرين .

والجاهلية التي ينتهجها أكثر الناس اليوم أفظع من كل جاهلية سبقتها ؛ لأنها باسم العلم والفن تجعل الناس بمعزل كامل عن منهج الله في الحياة ، بل فيها الاعتداء الكامل على سلطان الله في الأرض ، والسيطرة على عبيده بكل ظلم ومهانة ، والجناية على عقولهم بالدجل والتضليل ، وقتل أرواحهم بالأفكار السامة والعقائد المنحرفة التي تضيع دينهم ودنياهم ، وفيها من الإغراء على كفر النعمة وإنكار الخالق أو التنكر لدينه وشريعته والتنديد بها مما هو تهجم على حكمته واستهانة بعزته . وفيها من التحسين للخلاعة والرذيلة والعمل على إذهاب الحياء ما لا تقبله جاهلية أبي لهب وأبي جهل.

فأكبر مهمة للعابد لله تغيير واقعه مما حل به من أنواع الجاهلية بأي وصف ولقب وأي خطة ، بل من ضروريات الصدق للضارع إلى ربه بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أن ينخلع من كل عمل أو قول أو اعتقاد جاهلي ، وأن يتخلص من ضغط أهل مجتمعه ، فلا يصطلح معهم أو يتفق أو يلتقي معهم في أي ناحية ، فلا يتعامل في سوقه معاملة جاهلية مبتعدة عن شريعة الله ، ولا يلتقي مع أي مصرف في عمولته على خلاف شرع الله ، ولا يدخل أولاده في أي مدرسة يكون التعليم فيها على خلاف ملة إبراهيم وشريعة سيد المرسلين ، ولا تجره المصلحة العائلية المزعومة إلى الهزيمة بإدخالهم في أي مدرسة كانت فيها خطر على العقيدة بما يخالف التصور الإسلامي الصحيح، ولا يسمح في بيته لدخول أي لون من ألوان الجاهلية من التبرج وإظهار المفاتن أو تضييق الثياب ، أو الحفلات الحديثة النابية عن أخلاق الإسلام ، فضلاً عن الاختلاط والعياذ بالله ، بل تكون مهمته السامية أن

يستعلي على هذا المجتمع ويرتفع عن جميع عوائده ونظمه »[1] اهـ.

١٦ ـ التعلق بالله وحده ، والافتقار إليه عبادة واستعانة ، والاستغناء عما سواه :

إن هذه الثمرة تعد من أعظم ثمار العبادة والاستعانة إن لم تكن أعظمها، فمن توجه إلى ربه سبحانه وتعلق به وحده وصدق في ذلك ، واعتقد فقره وفاقته إلى مولاه سبحانه عبادة واستعانة ، إنه بذلك يصبح في غاية الاستغناء عن الناس ؛ وبالتالي يسلم من تلك الأضرار البليغة التي تنشأ من التعلق بالمخلوق الفقير ، وتحصل له المنافع العظيمة التي تنشأ من التعلق بالله وحده .

وعلى قدر تكميل العبد للعبادة والاستعانة يحصل له الاستغناء عن الخلق والتعلق بالله وحده ، ويفوز بمنافع ذلك في العاجل والآجل .

وأنقل بهذه المناسبة بعض النقولات النفيسة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يتحدث فيها عن فقر العبد إلى عبادة ربه وإعانته ، والمصالح العظيمة التي تنتج من ذلك كما يتحدث عن مفاسد التعلق بالمخلوق ومضاره ، وعن المصالح العظيمة في التعلق بالله وحده ، يقول رحمه الله تعالى :

« واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ، ليس له نظير فيقاس به ؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب ، وبينهما فروق كثيرة .

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ١٠٥، ١٠٦) .

فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو ؛ فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره ، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولابد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بلقائه .

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والتذّ غير منعم له ولا ملتذّ له . . واعلم أن هذا الوجه مبني على أصلين :

أحدهما : على أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه ، كما عليه أهل الإيمان ، وكما دل عليه القرآن ، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم : إن عبادته تكليف ومشقة ! وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار ، أو لأجل التعويض بالأجرة ، كما يقوله المعتزلة وغيرهم .

فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس ـ والله سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآية ، وقال ﷺ لعائشة : « **أجرك على قدر نصبك** »[1] ـ فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي ، وإنما وقع ضمناً وتبعاً لأسباب ليس هذا موضعها ، وهذا يفسر في موضعه .

ولهذا لم يجئ في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على

---

(١) البخاري بنحوه / ك العمرة (١٧٨٧) ، و مسلم / ك الحج(٢/ ٨٧٦) (١٢٦ تحت ١٢١١).

الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف ، كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة .

وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي ؛ كقوله : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، ﴿ **لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ** ﴾ [النساء: ٨٤] ، ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا** ﴾ [الطلاق: ٧] .

أي: وإن وقع في الأمر تكليف؛ فلا يكلف إلا قدر الوسع ، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً مع أن غالبها قرة العيون ، وسرور القلوب ، ولذات الأرواح ، وكمال النعيم ، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه ، وذكره وتوجه الوجه إليه ، فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب ، ولا يقوم غيره مقامه في ذلك أبداً .

قال الله تعالى : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم: ٦٥]، فهذا أصل .

الأصل الثاني: النعيم في الدار الآخرة أيضاً مثل النظر إليه، لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم ، أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق ؛ من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك .

بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق سبحانه وتعالى ؛ كما في الدعاء المأثور : « **اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة** »[1] رواه النسائي ، وغيره، وفي صحيح مسلم وغيره ، عن «صهيب» عن النبي ﷺ ، قال : « **إذا دخل**

---

(١) النسائي / ك السهو (٣/ ٥٥) ، وأحمد (٤/ ٢٦٤) ، (٥/ ١٩١) ، وهو في صحيح سنن النسائي (١٢٣٧) ، (١٢٣٨).

أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون: ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار ؟! قال : فيكشف الحجاب ؛ فينظرون إليه ـ سبحانه ـ فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهو الزيادة »[1] .

فبين النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله في الجنة لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه؛ وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره ، فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب ، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان كان حصوله ألذ له، وتنعمه به أعظم »[2] .

ثم يتحدث رحمه الله تعالى عن ضرر التعلق بالمخلوق من عدة وجوه ، فيقول :

« **الوجه الثالث** : أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل ، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه وبصّره وهداه وأسبغ عليه نعمه ؛ فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره ، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه ، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله . . .

الوجه الرابع : أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه ؛ إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله ؛ فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ؛ ضره وأهلكه ، وكذلك من النكاح واللباس ، وإن أحب شيئاً حبّاً تاماً بحيث يخالله فلابد أن يسأمه أو يفارقه ، وفي الأثر المأثور : « أحبب ما

---

(١) مسلم بنحوه / ك الإيمان (١٨١) .

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٤ـ٢٦).

شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه ، وكن كما شئت فكما تدين تدان »[1] .

واعلم أن كل من أحب شيئاً لغير الله فلابد أن يضره محبوبه ، ويكون ذلك سبباً لعذابه ؛ ولهذا كان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، يمثل لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاع أقرع يأخذ بلهزمته ، يقول : أنا كنزك ، أنا مالك . فمن أحب شيئاً لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد ؛ فإن فقد عذب بالفراق وتألم ، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة ، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء .

وكل من أحب شيئاً دون الله لغير الله فإن مضرته أكثر من منفعته ؛ فصارت المخلوقات وبالاً عليه إلا ما كان لله وفي الله ، فإنه كمال وجمال للعبد ، وهذا معنى ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « **الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه** »[2] رواه الترمذي وغيره .

الوجه الخامس : أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته ؛ فإنه يخذل من تلك الجهة ، وهو أيضاً معلوم بالاعتبار والاستقراء : ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ؛ ولا استنصر بغير الله إلا خذل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** ﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢]

---

(١) روى نحوه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٠٢ ، ٢٥٣) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٤) وغيرهما ، انظر السلسلة الصحيحة (٨٣١) .

(٢) الترمذي في الزهد (٢٣٢٣) ، وابن ماجه (٤١١٢) ، وهو في صحيح سنن ابن ماجه (٣٣٢٠) .

وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق ، فلما قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته ، وكان في عبادة ما سواه ، والاستعانة بما سواه ؛ مضرته وهلاكه وفساده . . .

الوجه السادس : أن الله سبحانه غني حميد كريم واجد رحيم ، فهو سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه ؛ يريد به الخير ويكشف عنه الضر ؛ لا لجلب منفعة إليه من العبد ، ولا لدفع مضرة ، بل رحمة وإحساناً . والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم ، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ، ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما .

وإن كان ذلك أيضاً من تيسير الله تعالى ، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله ، فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر ، فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم ، فهم يحبون التمتع برؤيتهم ،وسماع كلامهم ، ونحو ذلك . . .

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ؛ بل إنما يقصد منفعته بك وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل ؛ فإذا دعوته ؛ فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه .

والرب سبحانه يريدك لك ، ولمنفعتك بك ، لا لينتفع بك ، وذلك منفعة عليك بلا مضرة ، فتدبر هذا . فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك ؛ فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول ، كما أنه لا يقدر عليه ، ولا يحملنك هذا على جفوة الناس ، وترك الإحسان إليهم ،

واحتمال الأذى منهم ، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم ، وكما لا تخفهم فلا ترجهم ، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله ، وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله ، وكن ممن قال الله فيه : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ** ﴾ [الليل: ١٧ - ٢٠] ، وقال فيه : ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** ﴾ [الإنسان: ٩] .

الوجه السابع : أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك ، وإن كان ذلك ضرراً عليك ، فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها .

الوجه الثامن : أنه إذا أصابك مضرة كالخوف والجوع والمرض ؛ فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله ، ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم في ذلك .

الوجه التاسع : أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك ، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك ، فهم لاينفعونك إلا بإذن الله ، ولا يضرونك إلا بإذن الله ، فلا تعلق بهم رجاءك .

إلى أن يقول رحمه الله تعالى :

. . . جماع هذا أنك إذا كنت غير عالم بمصلحتك ، ولا قادر عليها ، ولا مريد لها كما ينبغي ، فغيرك من الناس أولى أن لا يكون عالماً بمصلحتك ؛ ولا قادراً عليها ، ولا مريداً لها . والله سبحانه هو الذي يعلم ولا تعلم ، ويقدر ولا تقدر ، ويعطيك من فضله العظيم ؛ كما في حديث

الاستخارة : « اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ؛ وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب »[1] اهـ.

من كل ما سبق يتبين فضل التعلق بالله وحده ، والاستغناء عما سواه ولو كان هناك مباشرة للأسباب ، فإن الله عز وجل هو خالق الأسباب ، وخالق تأثيرها ، فرجع الفضل كله لله وحده ، فله الأمر كله ، وله الخلق كله ، وله الحمد كله ، وإليه يرجع الأمر كله سبحانه وتعالى .

وكلما كان تعلق العبد بربه سبحانه أقوى كانت حماية الله لعبده من الشرور في الدين والدنيا أقوى وأكثر ، وما أشد حاجة العبد إلى ربه في جلب ما ينفعه في دينه ودنياه ، أو دفع ما يضره في دينه ودنياه ، وخاصة في الأزمنة والأمكنة التي تكثر فيها الفتن ، ويحتاج العبد فيها إلى معرفة الحق والصواب والنجاة من مضلات الفتن ، وهذا من ثمرات الضراعة الصادقة بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

١٧ ـ الفوز برضا الله عز وجل وجنته :

وهذه هي الثمرة الكبرى والغاية العظمى من عبادة الله سبحانه والتوكل عليه ؛ حيث التنعم برضوان الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم ، حيث الأمن التام ، وقرة العين التي لا تنقطع ، والنعيم الذي لا يحول ولا يزول ، وكلما كان العبد أتم تحقيقاً لتوحيد ربه وعبادته وتوكله كان له الأمن التام .

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧ ـ ٣٣) باختصار ، والحديث سبق تخريجه ص٣٩١ .

قال الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] .

* * *

الخاتمة

في ختام هذه الرسالة أحمد الله عز وجل الذي بنعمته تتم الصالحات ؛ حيث أعانني على جمع ما تيسر وما تفرق من أقوال أهل العلم حول قوله عز وجل : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] .

وأود في هذه الخاتمة أن ألخص أهم المسائل التي مرت في هذه الرسالة ، مستعيناً بالله وحده ، وعليه التكلان وحده ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . ومن أهم المسائل ما يلي :

١ ـ أهمية فهم هذه الآية العظيمة وما تضمنته من الأصلين العظيمين اللذين تدور عليهما رحى هذا الدين ، وهما العبادة والاستعانة ، ذلك أن الدين كله قائم على العبودية لله وحده ، وهي الغاية التي خلق الله سبحانه الخلق من أجلها ، وهو سبحانه المعين عليها والمتفضل على أهل عبوديته بالقيام بها ، وأنه لا قيام لعبد بواجب العبودية إلا بالاستعانة به سبحانه ، فكان الأمر كله لله وبالله .

ولو تدبرنا هذه الآية من فاتحة الكتاب وفهمناها كما جاء في هذا البحث عن أئمة السلف لكان لنا شأن آخر في صلاتنا وتضرعنا وعبادتنا كلها .

٢ ـ إن الله عز وجل لا يقبل من عبده المؤمن إلا أن يكون له عبداً في كل آن وحال ، وفي كل زمان ومكان وشان ، وهذا هو الفهم الصحيح للعبودية

وشمولها لكل حياة العبد وشئونه ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ، وبذلك يرتفع من حياة المسلم ذلك الفهم المنحرف للعبادة ، والذي يحصرها في شعائر التعبد فقط ، أو بين جدران المسجد فقط ، ثم لا دخل لها بعد ذلك في حياة الناس ولا اقتصادهم ولا إعلامهم ولا في حكمهم وتحاكمهم .

٣ ـ إن هذين الأصلين العظيمين هما اللذان يجب أن يبدأ المسلم بهما في حياته تعلماً لهما ، وما يتفرع عنهما ، وعملاً وانقياداً لما يقتضيان ، وأن يكونا في أول ما يدعو إليه المسلم ويبلغ الناس به ؛ ذلك لأنهما يمثلان حقيقة توحيد الله عز وجل ، والتوحيد هو أول واجب على المكلف أن يعلمه ويعمل به ، وهو أول ما يدعى الناس إليه ويؤمرون بالدخول فيه كافة بكل شموله وكماله .

٤ ـ إن الانحراف الذي يطرأ على هذين الأصلين العظمين لهو أشد أنواع الانحراف ؛ ذلك لأن الانحراف في التصور لا يقف عند هذا الحد ، بل لابد أن ينتج عنه انحراف في السلوك والممارسات . وأخطر ما يفرزه الانحراف في هذين الأصلين إما الشرك بالله عز وجل أو البدعة في دينه بما لم يأذن به الله عز وجل، هذا إذا كان الانحراف في العبادة ، أما إذا كان في الاستعانة أو التوكل ؛ فإما أن يفرز الشرك بالله بالتعلق بالأسباب والاتكال عليها، أو في المقابل من ذلك حيث التواكل وترك الأخذ بالأسباب .

وكلا الانحرافين خطير ؛ فالأول شرك بالله أصغر أو أكبر (حسب ما في القلب من اعتقاد) ، والثاني قدح في حكمة الله عز وجل ونقصانٌ في العقل

وتناقض في التصرفات .

٥ ـ لقد خرجنا من دراسة هذه الآية العظيمة بأن العبد الضعيف المسكين لا يستطيع أن يقوم بعبادة ربه ولا بشيء من أمور دينه ودنياه إلا بأن يعينه ربه ويقويه ، وهذا يدفع العبد الفقير ـ والذي حاجته إلى ربه ضرورية وفقره إليه فقر ذاتي ـ أن يلجأ إلى الله عز وجل ويظهر فاقته وفقره إليه ويسأله العون والتوفيق والثبات في كل أحواله وشئونه ،وأن يتبرأ من كل حول وقوة ، ويسأل ربه ألا يكله إلى نفسه طرفة عين ولا إلى أحد من خلقه الضعاف المحاويج .

فالموفّق من وفقه الله ، والمخذول من خذله الله عز وجل ، نعوذ به سبحانه من الخذلان ، ونسأله تعالى التوفيق والثبات ، ولا وحول ولا قوة إلا بالله ، ويتأكد هذا أيام الفتن والشدائد ومزلات القلوب والأقدام كما هو الحال في زماننا هذا .

فيتعين اللجوء إليه سبحانه وكثرة دعائه والتضرع إليه بمثل هذه الآية العظيمة .

وبمثل قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله تعالى على لسان هود عليه السلام : ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن

﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] .

وقوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] .

وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦] .

وقوله تعالى لنبيه محمد عليه السلام : ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤] .

وقوله تعالى على لسان أوليائه المجاهدين : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] .

وقوله سبحانه : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

ومن الأحاديث وصيته عليه السلام لمعاذ بن جبل رضي الله عنه أن يقول دبر كل صلاة : « **اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** »[(١)] ، وقوله عليه السلام في دعائه: « **يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، اللهم أصلح لي شأني ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً** »[(٢)] .

٦ ـ إن العبد المؤمن حين يفهم العبادة والاستعانة بذلك الفهم الشامل

---

(١) سبق تخريجه ص٣٠٥ .

(٢) النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٧٠) .

الصحيح الذي بيّنه علماء السلف رحمهم الله تعالى ، فإنه ولا شك سيتفقد نفسه وما فيها من الخلل في فهم هذين الأصلين أو في تطبيقهما ، ويسعى عند ذلك لسد هذا الخلل ، ولن يتحقق هذا الفهم إلا بالعلم الشرعي المستمد من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ وما فهمه السلف الصالح منهما ، ولا يتم التعرف على سبيل المؤمنين حتى تُعرف سبيل المجرمين المنحرفين عن المعنى الصحيح للعبادة والتوكل . وبضدها تتبين الأشياء .

٧ ـ إن ما أصاب المسلمين في تاريخهم الطويل ، وما يصيبنا اليوم من المصائب الكثيرة ، إن كل ذلك راجع إلى الضعف الحاصل في عبادة الله عز وجل أو في التوكل عليه والاستعانة به سبحانه ، ولما كانت العبادة لا تصح إلا بالإخلاص والمتابعة ، فإن أمر الخذلان وكثرة المصائب يعود إلى التفريط في الأخذ بهذين الأصلين العظيمين المتمثلين فيما يلي :

١ ـ إخلاص العبودية لله عز وجل .

٢ ـ إفراد المتابعة للرسول ﷺ .

٣ ـ الاستعانة بالله سبحانه والتوكل عليه .

ولو استقرأنا جميع ما أصاب المسلمين في القديم والحديث أفراداً وجماعات ؛ لرأينا أن سبب ذلك هو التفريط في هذه الأمور الثلاثة أو في أحدها ، وما يتحلى فرد أو مجتمع بهذه الصفات إلا وينصره الله ويبطل كيد أعدائه .

٨ ـ وأختم هذه الخاتمة بالحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه

فيقول : «قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين : نصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل » قال رسول الله ﷺ : «اقرؤوا يقول العبد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يقول الله: حمدني عبدي ، يقول العبد : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يقول الله : أثنى علي عبدي ، يقول العبد : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ يقول الله تعالى : مجدني عبدي ، يقول العبد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، يقول الله تعالى : هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، يقول العبد : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ يقول الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ماسأل »[1] .

ففي هذا الحديث القدسي الكريم فضيلة عظيمة لسورة الفاتحة ، وبشارة عظيمة للعبد المؤمن من ربه عز وجل بإجابة دعائه في آخر السورة عندما يطلب العون والهداية إلى الصراط المستقيم ، وهذا غاية ما يريده العبد المؤمن، والضراعة إلى الله سبحانه بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ من أنفع الأدعية وأجمعها . كما يعلمنا هذا الحديث فضيلة الثناء على الله عز وجل قبل الشروع في طلب الحاجة منه سبحانه .

وبعد :

فهذا ما يسر الله عز وجل كتابته حول هذا الموضوع العظيم الشأن الذي لا غنى للعبد عنه، فما كان فيه من صواب فمن الله عز وجل؛ فهو المان به فله

---

(١) صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، في باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥) (١/ ٢٩٦) . .

الحمد ، وما كان من خطأ وزلل فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله منه وأتوب إليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

* * *

٩ ـ الفوز برضا الله سبحانه وجنته والنجاة من سخطه والنار ... ٢٥٠
من الأسباب الجالبة لتذكر النبأ العظيم والاستعداد للآخرة ٢٥٣
١ ـ معرفة الله عز وجل وتوحيده والبصيرة في الدين ٢٥٣
٢ ـ قراءة القرآن وتدبره والإكثار من ذكر الله ٢٥٦
٣ ـ الإكثار من ذكر الموت وزيارة القبور والمرضى ٢٥٧
٤ ـ محاسبة النفس على تقصيرها والتفكر في حقيقة الدنيا وزوالها ٢٥٩
٥ ـ الاعتكاف وترك فضول الاختلاط ٢٦٨
٦ ـ مصاحبة أهل الخير والقراءة في سير الزاهدين ٢٧١
٧ ـ دعاء الله واللجوء إليه ٢٧٣
الخاتمة « كلمة إلى ثلاث فئات من الناس » : ٢٧٥
١ ـ كلمة إلى الفئة المصلحة الداعية إلى الخير ٢٧٥
٢ ـ كلمة إلى الفئة المفسدة الداعية إلى الشر والصادة عن الخير ... ٢٧٩
٣ ـ كلمة إلى فئة الأتباع وعامة الناس ٢٨٤

الرسالة العاشرة

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

المقدمة ٢٩١
المبحث الأول : شرح قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾
وما ورد في معناها من الآيات والأحاديث ٢٩٧

سر تقديم العبادة على الاستعانة ٣٠١
أقسام الناس في العبادة والاستعانة ٣٠٤
المبحث الثاني : المفهوم الصحيح للعبادة ومظاهر الانحراف والضعف في ذلك : ٣١٥
متى يكون العبد متحققاً بوصف العبودية ٣١٨
انقسام العبودية إلى عامة وخاصة ٣٢١
بعض مظاهر الضعف والانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها : ٣٢٨
١ ـ الانحراف في تطبيق شرطي العبادة ٣٢٩
٢ ـ الانحراف في مفهوم العبادة ٣٣٠
٣ ـ الانحراف في التطبيق ٣٣٤
٤ ـ الانحراف في مصدر التلقي ٣٣٦
٥ ـ الانحراف في المفهوم والتطبيق ٣٤٠
المبحث الثالث : المفهوم الصحيح للتوكل والاستعانة ومظاهر الانحراف والضعف فيهما ٣٤٥
تعريف التوكل بمعناه الصحيح ٣٤٧
تباين الخلق في توكلهم على الله ٣٤٩
أقسام التوكل وأنواعه ٣٥١
ضوابط الأخذ بالأسباب ٣٥٢
بعض مظاهر الانحراف والضعف في مفهوم التوكل ٣٥٥
المبحث الرابع : بعض لوازم العبادة الحقة والتوكل الصادق وبعض ثمارهما : ٣٦٧

١ ـ الدخول في السلم كافة ٣٦٧
٢ ـ الحكم بشرع الله والتحاكم إليه وحده ٣٦٨
٣ ـ العزة والشرف والتحرر الحقيقي ٣٦٨
٤ ـ سلامة السلوك والتزام أوامر الله ٣٧٤
٥ ـ الإقدام والشجاعة والثبات والطمأنينة ٣٧٧
٦ ـ انتفاء الرياء والعجب والكبر ٣٨٤
٧ ـ تفريج الكربات والسلامة من مضلات الفتن ٣٨٧
٨ ـ الرضا بقضاء الله عز وجل ٣٩٠
٩ ـ موالاة أولياء الله والبراءة من الشرك وأهله ٣٩٢
١٠ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ٣٩٣
١١ ـ وضوح الهدف ونبل الغاية ٣٩٦
١٢ ـ النظرة الصحيحة للدنيا والآخرة ٤٠١
١٣ ـ الأمن والعدل والاستقرار في المجتمعات ٤٠٣
١٤ ـ شهود نعمة الله وشكره عليها ٤٠٥
١٥ ـ التخلص من رواسب الجاهلية ٤٠٧
١٦ ـ التعلق بالله وحده والافتقار إليه ٤٠٩
١٧ ـ الفوز برضا الله عز وجل وجنته ٤١٦
الخاتمة ٤١٩

* * *